جان جيونو

رجل من بوميين

ترجمة:

عبد الرزاق بلهاشمي



رجل من بومين

جان جيونو

ترجمة: عبد الرزاق بلهاشمي

منشورات سدرة

البريد الإلكتروني:



١

كانت تلك اللحظة تتربع في قلبي، وكنت أعلم أنها آتيةٌ لا محالة، توجهت عينا الرجل نحو الطاولة، وارتفعت تنهيدةٌ من صدره، فبعد أن شرب بعض الخمر، حان الوقت ليتحدث.

لقد كنا من أولئك الرجال الذين يعيشون بمفردهم في هذا العالم، هؤلاء الذين يتجوّلون في فراغٍ شاسعٍ يحيط بهم، كأنهم داخل دائرة مغلقة. هذا الرجل واحد من رفاقنا، واحد من هؤلاء الذين يشتغلون في المزارع، يعمل حصادًا للمحاصيل أو ما شابهها.

هذه المرة، كنت فردًا من فريق الحصاد في إحدى مزارع مدينة ماريغرات، هذا المكان الشاسع الذي يمتد على ضفاف نهر دورانس. إنها مدينة في ريف فرنسا، تتوسطها حقول قمح تمتد إلى ما لا نهاية، وتحيط بها غابات الصيد والكروم وكل شيء جميل. إنها حقًّا مكانٌ عظيم، لا شك في ذلك. جرى كل شيءٍ في حياتنا بصورةٍ صدفية تمامًا. بالنسبة إلينا، ليس هناك شيءٌ أكثر بوهيمية من وجودنا في هذا المكان.

قبل عشرة أيام، كنت في بيرويس أقيم في مأوًى صغير، لم تكن مسؤولياتي كبيرةً هناك، وكنت أراني سيدًا لنفسي. كان العمل شحيحًا، ولكن الطعام كان طيبًا، وكانت المضيفة امرأة جميلة. عمومًا، عشت حياةً مرفهة. ولسببٍ ما، تركت كل شيء ونزلت إلى هنا، وهكذا وجدت نفسي في ماريغرات. لقد وجدت الجميع يعملون بجد في حقول الحصاد. «مرحبًا، هل تحتاجون إلى عامل؟»، سألتهم. «أحيانًا»، جاءني الرد. «هل أستطيع الانضمام إليكم؟»، سألت مرة أخرى. «نعم، تفضل بالانضمام إلينا»، ردوا عليّ. وبهذا توظفت.

كان لدينا يومٌ واحدٌ فقط للترفيه، إذ كنا نتوجّه إلى حانة بيومونت في مانوسك، وهي حانة تقع في الجزء العلوي من المدينة أو في الضاحية كما يروق لهم تسميتها. كان ثمة جوٌ من المرح يعم المكان، وكان صاحب الحانة يعزف الأكورديون كمن

يعبث بمادةٍ خفيفة ولذيذة. تراوحت أسعار النبيذ بين عشرين سنتًا، وهذا كان ملائمًا لنا تمامًا. كنا نجتمع معًا استنادًا إلى التوافق والتعاطف، فهذه هي قاعدتنا. واجتمعنا في مجموعاتٍ تضمّ خمسة أو ستة أشخاص، اعتمادًا على التقدير الظاهري، فكان يشتعل روح الاحتفال فينا.

توجهت نظراتي نحو رجلٍ طويل القامة، تتميز عيناه بلمعانٍ يشابه لمعان الماء الذي يفيض على خديه، وتحت شاربه تكمت ابتسامةٌ بيضاءُ كالثلج. ما جذبني -لا أخفي عنكم- هو أن هناك شيئًا مريرًا في تلك العينين، كأنهما تحملان داخلهما ظلًا يخلو من بريق الحياة، بدتًا كأنهما تعكسان صورةً لقطعة لحم تتعفن في قعر نافورة.

اسمه ألبين، وهو رجل من الجبال. في تلك الليلة، كان يقاسي. دفع بكأسه وارتفعت منه تنهيدة طويلة صدحت في صدره الكبير كزئير الريح على التلال. قلت له: «هل كل شيء على ما يرام؟» في محاولة مني لمساعدته. أحيانًا، يليق بنا أن نلعب دور العجوز الذي يساعد الناس على تخفيف أعبائهم النفسية. وأنا -كوني رجلًا كبيرًا في السن- مررت بتلك التجارب عدة مرات قبلهم، ففي داخلي، كنت أقول لنفسي: «هيا يا صاح، استرخ ولا تحمل كل هذا الثقل، ارمِه خارجًا!»، وذلك ما كان حقًّا!

قال لي: «إنني أتعفن هنا، سأجمع أمتعتي وأرحل!»، فأجبته قائلًا: «استرخ ولا تفكر في مَن أساء إليك أو من خاطبك بكلام قاسٍ، فلا تحمل ذاك الهم فيما أنت تشرب الخمر، فهذه ليست اللحظة المناسبة. الأمور تتغير مع مرور الزمن، فاتركها تمضي: ساعة؟ ستمضي الساعة. يوم؟ سيمضي اليوم. كلما تحركت الأيام، يختفي الألم. دعك من ذلك يا عزيزي»، قلت له، فأجابني: «الظروف السيئة ليست مشكلة بالنسبة إليّ. ولكن ما أشعر به الآن هو أمر جديّ ومهم، فقد تغلغل في روحي تدريجيًا مثل مجرى الماء، وأما الآن فقد أصبح ثقيلًا جدًا على أكتافي ويدفن سعادتي تحت أشعة الشمس. من الأفضل أن أغادر هذا المكان».

بعد ذلك، لم يعد هناك داعٍ لأسئلة أكثر، فقد بدأ الإفصاح عن أفكاره بلا توقف. في تلك الليلة، كان صاحب المقهى يصلح أكورديونه بالغراء وقطع من الخرقات القديمة،

وكنا في حالة هدوء. كانت ليلة صيفية جميلة، مظلمة تمامًا تحت أشجار الليمون. وكان الشارع خاليًا، راحت الرياح اللطيفة تعبث بالغبار مثل طفل يلهو.

راح الرجل يتحدث باسترسال طويل: «هذه المرة الثانية التي أعود فيها إلى ماريفرات. فالمرة الأولى كانت قبل ثلاث سنوات عندما استأجرت منزلي الأول. كنت حديث العهد بالمكان، ولم أعد إلى هنا منذ ذلك الحين. لقد قضيت الشتاء في البلدات الصغيرة في الجنوب، مثل كافايون وآبت ولوريس وبيرويس... لم أرغب في الابتعاد كثيرًا في حال سمعت شيئًا ما عنها...

إليك ما حدث: في تلك السنة، كان هناك رجلٌ معنا من مرسيل، وهو شاب هزيل مثل فجل فاسد، بشرته ملتصقة بعظامه، وكان لديه وشم على راحة يده مكتوب عليه ‹اللعنة›. كان يبذر المال بطريقة غريبة! يُدعى لويس، وكان يبدو مرهقًا جدًا. شخص مثير للشفقة يشكو طوال الوقت ويلقي اللوم على الله، كما لو أنه هو المسؤول! ربما كان ذلك أول عمل حقيقي له. أما الآن، بعدما تعلمت الحياة قليلًا، أعتقد أنه ربما ارتكب جرمًا أو عملًا غير أخلاقي في مكانٍ ما وقرر تغيير الأجواء لمدة مؤقتة.

لا بأس، لم يكن رفيقًا سيئًا، على الأقل خارج العمل. كان يغني ويحرك رأسه مثل الدجاجة، ويمازحني. لكن، بالنسبة إلي، لم أكن مرتاحًا بصحبته؛ إذ وجدت في ذلك بعض الحرج. ولكن لما كان يطلب مني أن أشتري له زجاجة من النبيذ في بيمونت، كنت أوافق بسرور. ولكن ما أثار اشمئزازي بشكل خاص هو سلوكه تجاه النساء. في أول مرة قدمنا إلى هنا، بدأ الأمر مع النادلة أنايس. لم يسمح لها بتقديم كأس من النبيذ دون إلقاء حديث طويل. كانت فتاة صغيرة في سن الخامسة عشرة تقريبًا في ذلك الوقت! جاءت ذات مرة لتقديم النبيذ إلى الطاولة خلفنا. رأيته ينحني، ثم يضحك، ثم يداور بحركات غريبة. والفتاة، بدورها، بقيت هناك. كانت تتحدث مع من طلبوا الشراب، وتتحرك قليلًا بحركة خفيفة مثل شجرة صغيرة. كان واضحًا أنها بقيت مدة أطول مما يجب. عندما غادرت، استعاد انتباهه. هذا هو الأسلوب الذي اتبعه مع فتاة صغيرة في الخامسة عشرة!

ولكن، على أي حال... في منتصف شهر أغسطس، وقعت الأحداث. نعم، في تلك اللحظة، كنت قد تعرفت على شخصيته تمامًا، من الرأس إلى القدمين، مرورًا بكل ما يحويه من تفاصيل شخصية وأفكار. في إحدى الليالي، ويا لها من ليال جميلة! وقفنا هنا حيث نحن الآن، على الشرفة. كان الوقت متأخرًا. وكان هدوء ساحق يملأ الأجواء بين الأشجار.

أشياء الأرض يا صديقي المخلص، كم عشت بينها! وصنعتْ حياتي في جوانبها المختلفة. كانت لي علاقة وثيقة مع الطبيعة، فقد وجدت الراحة والسكينة في صداقة الأشجار، ولطالما استنشقت نسمات الهواء المنعشة عندما شعرت بالحزن. فقد أتت تلك النسمات كمعزّية تداعب قلبي وتعينني على التغلب على الأحزان. في ذلك اليوم، كنت أنظر إلى وطني داخل نفسي، وكان ذلك مؤلمًا، لم تمض سوى ثلاثة أشهر منذ رحيلي عنه. على العموم، سأخبرك بعد قليل عن هذا الوطن، لأن ذلك سيشرح قصتي وسيريحني الآن عندما أنطلق في رحلتي.

ولكن في تلك الشجرة التي تراها هناك، بدأ العندليب يغني، ثم اهتزت البرك المحيطة بنقيق الضفادع، وبدأت البومة تصيح، وفجأة، لاح القمر فوق التلة. في تلك اللحظة بالضبط، سمعت صوت عربة قادمة يجرها حصان يركض بخطوات سريعة.

في العام الماضي، كانت توجد بقالة في المنزل الذي تراه هناك مغلقًا ومظلمًا بنوافذه المعتمة. بقالة نموذجية، على ما يقولون، ولكنها أغلقت الآن. لقد أطلق الرجل النار على نفسه ببندقية، وبيعت المواد الغذائية بالمزاد. لقد كانت البقالة تظل مفتوحة حتى وقت متأخر بأضوائها، لأنها كانت تواجه صعوبات في الأعمال التجارية، وكانت تأمل دائمًا أن يأتي شخص ما في وقت متأخر بعد المرور على المحلات الأخرى المغلقة.

توقفت العربة أمام البقالة، ورسخت حوافر الحصان بثبات على الأرض، ولم يعد هناك أي صوت. كانت السائقة فتاة. أعني فعلًا، فتاة، وليست امرأة، لأن النساء في الريف، كما تعرف مثلي، هن باردات مثل الخشب والحجارة. يمشين كالقديس الذي يُحمل على الأكتاف، متعبات من الأرض والناس. هذه الفتاة، تحركت بسرعة وسهولة

مثل الحمام، وفجأة دخلت المحل. رأيتها من الجانب، وكانت ملامح وجهها واضحة تحت الإضاءة، كانت جميلة جدًا، ما زلت أذكر تلك الصورة في ذهني، رافقها صاحب البقالة إلى العربة ليساعدها في حمل البضائع المشتراة، ربما كان يأمل أن يحظى بزبونة مثلها كل ليلة ليتجنب مشاعر الاكتئاب وهواجس الانتحار بطلقة بندقية في الفم.

أمسكت الفتاة بلجام الحصان وصاحت: ‹أوه، هاي، أوه›، بصوتها الذي لا يزال يتردد في رأسي، ثم انطلقت في طريقها. في تلك اللحظة، ضربها القمر بنوره من القدم إلى الشعر، ورأيتها بوضوح، بساقيها وبطنها الناعم وصدرها الممتلئ بداخل القميص، وشعرها الجميل المجدول.

في قصتي يا صديقي، اشتعلت نيران الحرب بين بلادي ودولة أخرى. بلادي كانت قوية ونزيهة، أمّا الدولة الأخرى فكانت ملتوية وفاسدة. انتظر قليلًا حتى أنهي حديثي... فأنا لستُ سكرانًا، ليس من النبيذ على الأقل، ربما من شيء آخر، لعل كلامي أعطاك صورة مختلفة، لكن عندما أتحدث معك، أعبر لك ليس كأي شخص آخر، بل إنني قد أجدت ذائقتك. قبل أن أغادر، أرغب في أن أترك حملًا من الذكريات كتذكار، تمامًا كما يخفي المرء حقيبته تحت الأشجار قبل أن يصعد إلى مزرعة بعيدة ومرتفعة. لقد أحسست بإعجابٍ تجاهك وتجاه كلماتك القوية واللطيفة، إنك تعرف تمامًا كيف تلامس القلب. لقد عرفتَ كيف تتفهم أحاسيسي، وإنك قد أسعدتني.

يحل الليل عليها وتتلاشى ضوضاء عربتها، وتصبح وحدها مع لويس. كنت بعيدًا عنهما في مروج شاسعة مغمورة بأزهار الجنتيان الطويلة التي تصل إلى بطني. ستفهم ذلك قريبًا».

«هل رأيتَ الفتاة؟»، سألته بهمس فيما تطاير بعض اللعاب من فمي. أجابني: «كان لويس معي يوم جاءت بعربتها إلى البقالة، دار إليّ وقال: ‹أحتاج إلى دمية مثلها. كم يسهلُ عليّ أن أسحقها على الفور! لا بدّ أن وزنها لا يتجاوز الأربعين كيلوغرامًا... أقول لك، أريدها أن تكون لحمًا نتنًا يشمه كل من لديه حاسة شم مرهفة، كم سيجذبني عارها ورائحة لحمها النتن! مثل شيء يُلحق الألم وفي الوقت نفسه يجلب السرور›.

لم أجبه، ودارت تلك الفكرة في عقله كأنها قد أصابته فجأة لما رأى الفتاة أمام عينيه. ثم تابع كلامه قائلًا: «هذا العمل الحقير لا يليق بي البتة، إنها حياة محطمة وبائسة. ليس إلا أن يكون المرء سفيهًا ابن سفيه حتى يتأقلم مع هذا الجحيم. يثير القمح الآن في ذاتي بغضًا حادًا حين أنظر إليه، ربما هذا الوضع مقبول بالنسبة إليك، أمّا بالنسبة إليَ، أنا الذي أنحدر من منطقة مارسيل وأجيد السباحة والحياة الجميلة، فإنه أسوأ ما مررت به بكل تأكيد. ما ينبغي أن يكون بين يدي، ما أحتاج إليه هو فتاة مثل تلك التي في العربة. تلك هي الذهب الحقيقي. إنني لا أضع في اعتباري الوقت اللازم لتعليمها بيع الهوى، ولا أهتم بالربح الأولي السريع، أو متعتي الشخصية في بادئ الأمر. أنا لا أحتسب الربح الأول، فالربح التجاري يأتي بعد ذلك. أنا من ساحة لونش؛ أعرف كيف أتعامل مع النساء. فتاة مثل تلك التي رأيناها للتو، لو أردت أن تجهزها، ستدفع مبالغ كبيرة على الفساتين الجميلة، والملابس الداخلية الجذابة، والجولات في ملهى ألكازار، وبعدها يحين وقت جني المال. في غضون يوم أو آخر، ستدرّ عليَ مئة فرنك، وجميع المصاريف ستُدفع»».

كان ألبين يقول هذا، بلهجة وبألفاظ خاصة بذلك العالم. كان واضحًا أنه قد تصور تلك الفكرة بعمق، وظلت محفورة في عقله. تحوّل وجهه عندما قال هذا، كأنه شخص آخر، وبدت عيناه مملوءتين بالألم. ثم أغلقهما، وفي الوقت نفسه تنهد بعمق، وأنا أقسم لكم بعقيدة عالم الشوارع القديم، إنه قال بنبرة تصيبك بالقشعريرة على جلدك: «يا له من أمر، قال إن بوسعه سحقها على الفور!»

II

بدأ الوقت يتأخر فناديت صاحب المكان، ووجدته يعزف على أكورديونه بأنامله الطويلة. فدفعت الفاتورة وانصرفت. وجدت ألبين جالسًا إلى طاولة معدنية، فقلت له: «تعال معي، هل ترغب في القدوم؟»، فوافق وانضم إليّ متعثرًا وثقيلًا كما كان، وتوجهنا نحو ماريغرات.

قد اقترب دوري في العمل، المفترض أن أبدأ نحو الساعة الخامسة صباحًا، لذلك كان لدينا بعض الوقت نذهب فيه للاستلقاء والراحة والنوم. خلال سيرنا، لم نتحدث كثيرًا، كنا نسير بصمت إلى باليرن، حيث تنتهي أشجار الصفصاف. وعندما انعطفنا لنأخذ طريق الريف، لم أعد قادرًا على الصمود أكثر وسألت: «وماذا بعد؟»، بدأ ألبين يتحدث دون توقف. بالفعل، أصبح الحديث بالنسبة إليه مثل لحن متواصل ينبعث منه. قال: «أخبرتك أن وطني هو التاريخ، كل التاريخ؛ وأخبرتك ذلك لأنه حقيقي. إن بلادي هي التي صنعت مني ما أنا عليه الآن. إنها تبعث فيّ الشعور بالانتماء والفخر.

إنني أحمل بومين بكاملها في داخلي، بلدةً ثقيلة مفروشة بالتربة الخصبة التي تمتد للسماء، وأشجارها التي ترتفع بشموخ ورفعة. موطني جميل ومهيب بمساحته الواسعة وسمائه الصافية، وربيعنا الخصب الذي يزدهر بأجود أنواع العلف والهواء النقيّ والمنعش.

بومين! جبل الصمت، البلد الذي لا يتحدث فيه الناس مثلما يتحدثون في الأماكن الأخرى. آه، أراك تضحك، وتعتقد أنني كنت أثرثر مدة ساعة وحدي، وأتفاخر بأنني ابن تلك الجبال العالية، ولكن هذا ليس الحال تمامًا. أشعر كأنني أنزف، كأن الدم يتدفق بسرعة مع القيح، وهذا ما أحاول التعبير عنه الليلة، أشعر كأنني أتحرر من بعض الألم. خلال السنوات الثلاث الأخيرة التي قضيتها في هذه البلاد، لم أعد أتحدث كثيرًا؛ لم أقل سوى الضروري لكي أتناول الطعام والشراب. لكن بسببك ولأن الوقت قد حان، استطعت التحدث والتعبير. الآن، سأغادر هذه الأرض وأعود إلى بومين وأكون قد انتهيت من هذا الفصل. أرغب في أن تحتفظ بقصتي الجميلة في قلبك وأن تكون شاهدًا عليها بعدما أرحل.

عندما تبزغ شمس الصباح على حافة بومين، ستلتقط عيناك لوحة خلّابة تعبق بالهدوء والسكينة. لنفترض للحظة -وإن كان ذلك مستحيلًا- أنك قد وصلت إليها في تلك اللحظة الفريدة.

ستُحاط بعشرة منازل، تتوارى وراء أوراق الأشجار المرتفعة والغابة الخضراء. وسيرافقك صوتٌ مميز عندئذٍ، يُشبه ألحان هارمونيكا، تنساب بنغماتها العذبة محاكية أصوات الطيور. ستجد نفسك تنصت إلى هذه الألحان البديعة وهي تتأرجح بين أغصان الشجيرات وترقص على نسمات الهواء، معازف الحانات وورش الحداد، وربما تلمح امرأة تجلس أمام باب منزلها، ترنم لأوتار الموسيقى بعذوبة وجمال.

ولكن دعني أسرد لك قصة هذا المكان العجيب وأصوله البعيدة. في زمن من الأزمان الغابرة، كنا نتبع تقاليد لا نحسد عليها، ولم نكن نتبنى دين مريم العذراء المنتشر في الأرجاء. وبسبب ذلك، تعرض أجداد أجدادنا للاضطهاد والتعذيب والتشويه، إذ قُطِعَت ألسنتهم ليمنعوا من أداء أي ترتيلة أو مقطوعة غنائية.

بعد تلك المصيبة، تهجروا بعيدًا كأنهم قُطِفوا من قلوبهم وأوطانهم، تركوا خلفهم المنازل والحياة السعيدة. لكنهم لم يستسلموا، فصعدوا جميعًا إلى قمم الجبال الشاهقة، رجالًا ونساءً، وصعدوا إلى أعالي تلك المنطقة التي يفوق ارتفاعها بكثير آمال أولئك الذين حاولوا قمعهم. وهناك، على حافة الهاوية الزرقاء الخلابة، اكتشفوا أرضًا خصبة، أسسوا بومين على تلك الأرض: مأوى بسيط لقلوبهم وأرواحهم.

لكن التواصل فيما بينهم أصبح تحديًا، إذ عذّبتهم الرغبة في التحدث بألسنتهم المبتورة وتعابيرهم المكتومة، وأُجبروا على أن تشابه أصواتهم صراخ الحيوانات العلويّة. ولكن لم يكن لهذا الأمر أن ينال من عزيمتهم، بل وجدوا طريقة غريبة وجميلة للتواصل بينهم وبين الأهل والأحباب. فأبدعوا في ابتكار الهارمونيكا، ألهجوها في أفواههم الحكيمة، واستطاعوا أن يحيوا الألحان باستخدام أطراف ألسنتهم المتبقية.

وهكذا، صارت الهارمونيكا لغتهم الخاصة للتواصل والاحتفال. كانوا يعزفونها

بحناجر ملتهبة لنداء النساء والأطفال، وتلك الدجاجة التي ترقب الصباح، وحتى تلك البقرة الوديعة. وتعود أعياد الأحد لتجمعهم تحت الشجرة الكبيرة، ويقف الأكبر سنًا بفخرٍ وحماس يتلو القصص القديمة بصوتٍ يحاكي صوت الكلام الطبيعي، كأنما يتكلم بألسنتهم المفقودة. وتتدفق كلماته مثل الدموع، تحمل في طياتها حكاياهم وألمهم وأملهم.

بعد ذلك، كان الناس جميعًا يقفون معًا، يرفعون أعينهم نحو السماء، وكان ذلك هو الوعظ الديني. هذا الوعظ كان يساعدهم على الاستمرار والصمود طوال الأسبوع، وكل أسبوع جديد. ومن خلال رحمة الله، كان يولد أطفال جدد بألسنة سليمة، يتحدثون اللغة بشكل كامل. والآن، ما زلنا نتبع هذه العادة. لدينا جميعًا أنغامنا المفضلة.

خلال الاحتفالات، نتوجه إلى حقول خضراء جميلة، ونحمل معنا زجاجات من مشروب الشعير. هناك، نعزف جميعًا على آلة الهارمونيكا، تكريمًا للأجداد الذين زرعوا نسلنا. يعزف كل شخص لنفسه، وتستمع النساء إلى عزف أزواجهن على آلة الهارمونيكا، وتعلقن الأمل فيها. يستمع الأطفال إلى هارمونيكا آبائهم، ويفضلونها على غيرها. لدينا هذه الآلة بين كثير من الآلات الموسيقية، وهي الأكثر فهمًا لنا بلغتنا القديمة للتواصل والتعبير عن مشاعرنا.

وفي النهاية، نعزف معًا ألحانًا جميلة تعبر عن فرحنا بمحصولنا الوفير، ومياهنا الباردة وأجسامنا القوية والحيوية، من الصغار حتى الجدود».

لقد أصابني كلامه بالذهول! بدأت أشك إن كنت ما زلت على قدمي، وإن كان الشخص الذي يسير بجانبي هو ألبين أم لا.

لكن ألبين أكمل قائلًا: «لذلك، بومين هي أنا بالفعل. هذا المكان الذي يزهو بكل هذه الأشياء الرائعة التي تلبي أحاسيسي ومشاعري، مثل الألوان الزاهية ونكهات الأعشاب وأصوات الأشجار ونشيج البيوت الخشبية عندما تهب الرياح الباردة. هذه الأشياء تبعث في قلبي السعادة والحزن في آن واحد، بسبب جمالها والمعاني العميقة التي تحملها.

وكما كانت الحال، واصلت العمل، أنا ولويس، هو في فريقه وأنا في فريقي. لاحظت لويس وهو يعمل بجد في الغبار، وكان يبدو نحيلًا مثل الجرادة وهو يحمل الحزم أو يجمع القش باستخدام الشوكة. أمّا أنا، فكنت أبذل قصارى جهدي لأكون أول من يتحدى الأرض ويغمرها بيديه. هذا المجهود ساعدني على تحسين مزاجي ومشاعري.

ولكن عندما نظرت نحو الفتاة في تلك الليلة، شعرت بالاضطراب والارتباك لما رأيت جمالها ورقّة جسدها وهي تتعامل بلطف مع الحصان. ثم نظرث حولي، وكان وجه لويس موجودًا بجواري مباشرة. هذه الأحداث جرت خلال أيام معدودة، ربما خمسة أو ستة أو حتى عشرة أيام، وعلى الأرجح قبل يوم الأحد. اقترب مني لويس في المأوى عندما كنث أغلق أزرار ملابسي بسرعة، لاحظت ابتسامة غامضة على وجهه.

قال لي: «فلنذهب في رحلة لصيد السمك في الصباح الباكر، عندما نلتقي، سأريك مكانًا جميلًا أعرفه، ستشهد روعة المشهد وجمال الطبيعة الخلابة».

كان الصباح مشرقًا وعابقًا برائحة الورد، الأشجار المثمرة ما زالت تتلألأ بشبابها. تأثرت بحماسٍ وبهجة، ولكن دونما سبب واضح، شعرت بمرارة تسكن حلقي كأنها تخنقني، وشعرت باقتراب الشؤم.

واصلت المسير مع لويس على ضفاف نهر درانس. كنت أتّبع خطاه على طول النهر، حتى جرّتنا المسالك الملتوية إلى مكانٍ سحريّ في الغابة. كأنه نفقٌ يختبئ بين أوراق الأشجار، منه يمكننا رؤية الضفة الأخرى كأننا نراها عبر منظار. كان مكانًا فاتنًا، والمشي على ضفاف النهر جَادَ عليّ ببعض الراحة، لكن الألم لم يفارقني. ارتميت بعدها لأسبح في مياه النهر الباردة. وتمتعت بالصيد كأنني في نزالٍ مع الأسماك، فامتلأت سلة الصيد وحقيبتي بالمحصول الوافر.

بعد ذلك، غفوت في ظلّ شجرة الصفصاف البارد. كان لويس يرقد بجواري وأصوات الشخير الخفيفة تعلو منه. ثم استيقظت فجأة بمرارة في فمي. أيقظت

لويس، وتساءلت بحيرة: ‹ما الذي أردت أن تريني؟› فأجابني بغموض: ‹اصبر، لم يحن الوقت بعد›.

وعند حلول المساء، وسط نسيم الظلام المنعش، سمعت صوتًا أرعب مسامعي؛ كأنه صوت امرأةٍ تغني. قبل أن أتحرك لأتحقق، أدركت أنها هي من تغني تلك الألحان. رأيتها وقد تغطى وجهها خلف أوراق الصفصاف، وأنا كالطائر الحير يتأملها من بعيد. كانت هناك... على الضفة المقابلة لنهر دورانس، في حقلٍ ناعمٍ مثل سحب من القطن. كانت تسقي الأعشاب، وكانت هي بالتأكيد. تعرّفت عليها من خطاها الرشيقة. رفعت فستانها قليلًا، فظهرت رقة ساقيها، أما جسدها العلوي فكان يتألّق مثل البرقوق الناضج. هكذا تراقصت بين الماء والعشب، وصوتها يعبق بالحلاوة.

شعرت بالخجل، إذ كان حضورها يحرقني مثل الحديد الساخن على جلد الأغنام. وأحسست أنها تخترقني بلطفها، وتجرحني بسحرها الفاتن.

لكن لويس لم يشعر بالخجل، إنه دائمًا هكذا! خرج من وراء أشجار الصفصاف بكل جرأة، فبان بوضوح ونشاط وهو يرفع قبعته بيده ويصرخ بكل زخم: «أوهي...»، رفعت بصري فكانت هناك، تقف فوق العشب وتحرّك قبعتها الكبيرة من القش في الهواء، ثم بعد لحظة، وصل صوتها إلينا: «أوهي...»

إنها هناك، وها هو ذا الفارق بيني وبينه. لو لم أشعر بالحياء، لخرجت من الظلام ووقفت على الحصاة تحت أشعة الشمس، ليهب عليّ صوتها الساحر، وهو ينبعث من فمها الدافئ وينساب في الهواء.

أخبرني لويس أنها كانت ابنة مزرعة لادولوار، تلك المزرعة النائمة بجوارنا، البيت الصغير الذي يتخذ مظلته من أشجار البلوط، أما اسمها فهو ‹أنجيل باربارو›.

لكن ما لم يخبرني به هذه المرة، واضطررت إلى اكتشافه بنفسي تدريجيًا، من خلال كلمة هنا، وصوت هناك، ثم في نهاية المطاف من خلال نظرات عينيه. هو أنه كان يرصد لها في المساء وهي تسلك طريقها. ثم فجأة، يقترب منها ويوجعها بصفعةٍ قوية، ثم يوبخها بوابل من الشتائم التي تستعمل مع الحيوانات ليروضها ويستولي

عليها تمامًا. منذ ذلك الحين، أصبحت تحت سلطته تمامًا وحُكم عليها بالعبودية وبأن تصبح فريسة سهلة له في كل مساءٍ عندما يلتقيها. ربما تقول أيها الحكيم: ‹إن تلك الفتاة الجميلة التي وصفتها لي كأنها القديسة مريم، لم تكن مختلفة عن سواها، ولويس لم ينل سوى البقايا لأنها اعتادت مثل هذه المواقف مع الرجال›. لكني لا أتفق معك، فهي كانت مختلفة تمامًا! لقد تباهى لويس بهذه العلاقة، ولم يتغنَّ بالكذب كما يفعل في بعض الأحيان. وعندما يعود من لقائها، يظل في حالة هيام وإحساس يشبه السكر الذي يسكن عينيه الشريرتين، فعلى الرغم من كونه شخصًا منحطًا، ثمّة لحظات تصبح فيها هذه العلاقة عبئًا ثقيلًا يكاد يُثقل كاهله.

كان هذا أمرًا مختلفًا ومدهشًا جدًا؛ فقد استطاع التحدث إلى الوحش! نعم، أنا أقصد الفتاة القوية التي ضبطت لجامها بثبات، هذا الوحش الجميل بفخذيه الناعمتين. لقد تحدّث مع الوحش وتفاوض معه، وانتهى الأمر بالاتفاق وتحقيق الهدف.

اسمح لي بأن أختصر لك الأحداث المتلاحقة التي توالت بلا انقطاع. في أحد الأيام، دخلتُ الحظيرة بحثًا عن التبغ، فوجدت لويس مشغولًا بتجهيز حقائبه. أخبرني قائلًا: ‹هذا المساء، سأغادر برفقة الفتاة. فقد تفاهمت معها، ولا مجال للعب الآن. قد حان وقت العمل›.

ألقيت اللوم على قريتي بومين التي لم تعلمني كيفية القتل، لكنني كنت واثقًا بأن الأمر لم يكن ليستغرق وقتًا طويلًا. كان مسألة دقائق.

كنتُ أعتزم دفعه تحت القش وإنهاء المهمة، لكن ما حدث كان مفاجئًا جدًا كأنني في ربيعٍ مُبكر يحل بعد ذوبان الثلوج، كأن الجبل الشاهق قد أُفرغ من غطائه الثلجي، فأجد نفسي مكشوفًا وعريانًا تمامًا أمام السماء. لقد فنت حيويتي، لم أعد ذاتي كلها، فقد أُحتجِزَ جزء من ذاتي بعيدًا عني... أنا لا أعلم ماذا حصل، لقد اختفى دون أن أعرف كيف أو متى.

تركت قبعتي وواصلتُ يومي من دونها، كانت الشمس ساطعة جدًا وأحرقت بشرتي، لكنني لم أهتم بالأمر إلى حد أن الجميع خاطبوني: ‹إنك مجنون أيها الرجل

الطويل»، حاولوا إجباري على ارتداء قبعتي، لكنني رفضت بحزم حتى أبقوا ينظرون إلي بإعجاب مخيف. واصلت إلى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر، ولم أكن لأظل قائمًا لولا أنني رجل قوي، ولكن في النهاية، سقطت على القش مستسلمًا كالميت.

والآن، تبدو بقية الأحداث كما لو أنها كانت معدة مسبقًا لمعاناتي وشقائي. سأكشف لك الأحداث المتبقية. تلك الأحداث غامضة، فأنا أشعر كأنني أراها تتمايل في أعماق البحر، وأنا أشدو فوق حوضٍ مائي. لا أدري بالضبط، لكن ذلك الحلم ليس ماديًا، إنه أكثر من ذلك بكثير.

زُفِعتُ إلى الحظيرة، وأوضِعتُ على فراشي هناك، وبعد ذلك تركوني وحيدًا. كأنني أشاهد النهار من خلال زجاجة ممتلئة بنبيذٍ أحمر.

بقيت الأمور على هذه الحال مدة طويلة، ثم بدأت تتحرك أمام عيني صورة الريف، حقول ماريغرات والأرض والأشجار، كل تلك المشاهد الأخيرة التي شهدتها قبل سقوطي لم تكن إلا خيوطًا متشابكة كأغصان الجنينة في سلة متلاشية. كانت حقول القمح المحصود مثل أوراق العنب الملتفة حول كرة من الجبن الأبيض. كنت أشعر بالانسياب والحموضة، كحليب رائب مكسور القوام تطفو فصص منفصلة عبر جوانبه. رأيت وشم كلمة ‹اللعنة› مكتوبًا على قاع دمائي الحمراء بأحرف حية متحركة. وراء كل ذلك، لويس، لم أكتف برؤية فمه وأسنانه المتعفنة وسيجارته وبصقات اللعاب التي تتطاير منه، ولكن رأيته كله بكل فظاعته وفساده. أصبحت الأمور غامضة ومربكة، ورأيت كأسًا من الخمر أمامي على طاولة بجانب غصن من شجر المضاض، ثم ظهر في الخمر يد امرأة، وأوراق نقدية بقيمة عشرة فرنكات، وسلّم، وأرجل عارية تتسلق، وسيقان رجال تتسلق. وأرجل مشابهة لسياط الكروم، وأفخاذ نسائية نظيفة كالماء.

وفي ذلك الحين، تسللت قوة سوداء ضخمة وأحاطت بي، ورفعتني قائمًا. ربما اضطررت إلى الوقوف والتقدم تحت نور القمر. شعرت كأن والدتي قد أتت وأحضرت معها جميع الأنهار في بومين لتصب الماء على رأسي. لكم هو رائع ومنعش ومليء بالزهور، حضن الأم وشفاه الماء. شممت رائحة خفيفة من القش تحاول الوصول

إلى أنفي، وأعتقد أنني حاولت توسعة فتحات أنفي بأصابعي ليتسنى لها الدخول. يبدو لي أنه عندما تدخل هذه الرائحة إلى رأسي، ستخلق حقلًا أخضرَ وناعمًا أمشي عليه. ثم يصدح صوت حصان يدق في المزراب. وفي النهاية، في هذا الحلم المثقل بحرارة الشمس، يساورني شعور بأنني أهبط على سلّم. أمامي خط الطريق الأبيض، وها أنا ذا أسير عليه موازنًا ذراعيَ المفتوحتين كأنني أمشي على حبل. ثلاث أشجار صنوبر تعزف الموسيقى بحفيف أغصانها. كل أهل بومين وحتى الأجداد الذين قُطعت ألسنتهم يقفون ورائي ويعزفون الهارمونيكا بألحان تحملني مثل الريح الطيبة.

إنني ذاهب نحو لادولوار في ظلام الليل. عند تقاطع طريق لادولوار وطريق تور، أسمع صوت خطوات. أتوقف وأنا أتزعزع كالنبات المائي. إنها قادمة، أنجيل، ستهرب مع لويس، تسير بسرعة وتحمل حزمة صغيرة مربوطة بقطعة قماش زهرية.

وحينما تصل إليّ، لا أعلم كيف، لكن يدي تمسك بيدها وأتحدث إليها. أقول لها... أقول لها... لا أدري. إنه حلمٌ غريبٌ ومجنون. وهي تبكي، تبكي على يدي. وفي تلك اللحظة، فزت، نعم، فزت في حلمي. أتذكر، قالت لي: ‹أنت محق، ليس من الصواب الهروب معه، لكن... لقد فات الأوان الآن›. لكنني أستمر في الحديث وأضمها بقوة. إنه حُلمٌ، كما ترى.

ثم أسمع صفيرًا هناك، في تلك الليلة الظلماء، صفيرًا قادمًا من لويس؛ فتنفصل عني كالثمرة الناضجة تتحرر من فرعها؛ وتبدأ بالجري نحو مصدر الصفير. وها هي ذي تغوص في ظلام الليل، مستدرجة بالصفير كالحبل الذي يجرها. هكذا».

III

وفيما نحن قد قطعنا المسافة بكل مجهود، طالت ناظرنا ماريغرات عبر غابة كاداراش. ظهرت كنجمة بين أضواء المنازل، فيما يخترق صدى أحاديث الناس الليل الدامس. جاوزنا الغابة ووصلنا في ربع ساعة تقريبًا. وكانت الحكاية التي سمعتها تشعل فكري كأنه كرمٌ معصور. لستُ ساذجًا، فأنا واعٍ جيدًا بالقصص السوداوية، ولكن هذه القصة، لم أسمع مثيلًا لها في حياتي المليئة بالصعاب! والغريب في الأمر، أنه قد بدأ يكز على أسنانه، وكان الصوت الوحيد الذي نسمعه هو صوت خطواتنا على الحصى واحتكاك العشب مع ثيابنا. سألته مجددًا: «ما الذي جعلك تظنّ أنك في حلم؟» أجاب: «في آخر الليل، بينما كنت أنتظر على الدرج كان بعض الناس قد بدؤوا التحرك مع الفجر. كانت الرغبة تسري في دمائي، أردت الذهاب إليها، ومواجهة لويس الفاسد، بالتأكيد الرغبة كانت قوية، ولكن لم تكن لدي القوة الكافية لذلك. منحني شروق الشمس جرعة صغيرة من القوة للنهوض والنزول. وعندما وصلت إلى الأسفل، لم يكن بمقدوري حمل عظامي وبقية جسدي. لذلك، فارقتني هذه الرغبة بمفردها في الظلام، وحدث ما حدث، ولا أحد يعلم، لكنه بدا لي مثل حُلم».

سألته: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

أجابني: «بعد ذلك، أصبحت الأمور بسيطة وواضحة. رحلت الفتاة، ولم أعد أراها مجددًا. تعلم يا صديقي، إنّ الأمور البسيطة والواضحة، إن كانت للخير، فهي جميلة ورائعة. ولكن إن انقلبت للشر، فإنها تصبح كالسكين الذي يعمق جرحه يومًا بعد يوم بلا رحمة».

وهكذا، بينما روى ألبين كل ما حدث تلك الليلة، فإن هناك شيئًا لا يمكنني التعبير عنه بالكلمات، وهو النغمة والشعور الذي حملته كلماته.

لما بدأ سرد القصة، كان صوته عاديًا مثل صوت أيّ إنسان، ولكن مع مرور الوقت وتعمقه في مآسيه، تحول الصوت إلى شيء أكثر تميّزًا واستثنائيةً، وبدا كأنه يتناغم خصيصًى مع حكايته. بدأ ذلك حينما ذكر اسم قريته، ومنذ ذلك الحين لم يعد صوته

عاديًا، بل اكتسب طابعًا خاصًا. قد تضحكون على هذا الأحمق الذي تورط في مثل هذه القصص العبثية، ولكن بصدق، إنه كان أمرًا جديًا وعميقًا وشديد الأهمية. لقد تشابه صوته مع أنغام الرياح المنسدلة عبر الأشجار والأعشاب والجبال والسماء. وعندما ينطلق من شفتيه، يراقص الأذهان ويتجاوز حدود العالم.

وصلنا أخيرًا، وصلنا إلى تراص الحبوب الشاسع، حيث يستغرق العمل فيه ست ليالٍ، وكان فريقي هو الذي بدأ العمل فيه أولًا. استطعت التعامل مع الحبوب ببراعة، وانسجمت حركاتي مع أوزانها، تأقلمت عيناي مع الظلام لأجد المكان المناسب لتثبيت الشوكة في الحبوب. لكن في كل مرة أبدأ فيها العمل، يعود إلى ذهني صوت ألبين وهو يروي قصته بكل عاطفة، قصة ملحمية ومؤثرة، كأنها تحفر في ذاكرتي العميقة.

وفي ذلك اليوم، عندما انتهينا من العمل الشاق وحان وقت الاستراحة، شعرت بالإرهاق والألم في ذراعي. لكن عوضًا عن العودة إلى مأوانا الجديد، ذهبت لزيارة ألبين. كان يعيش مع زملائه في مسكن بسيط يشبه الحظيرة، وكان الجميع نيامًا بعد يومٍ شاق من العمل. رأيت ألبين نائمًا هو الآخر، وجهه يعكس معاناة وتعب العمل، كنت أتمنى أن أخفّف عنه وأعيده إلى حالة الصحة والسعادة.

إنه رجل جميل! شاب بشكل لافت للنظر، حيويٌ وقوي البنية، وقد كان أطول من غيره مرتين. كان ينام بسكون تام، مستلقيًا على ظهره مثل أي شخص عادي في أثناء النوم. لو تسببتُ في إزعاج هذا السكون، فإنها جريمة، خاصةً حين يدرك المرء أن الاستيقاظ يعني مواجهة الواقع المحبط. جلستُ بجانبه على سريره، نظرت إليه للحظة ثم شعرت فجأة كأنني غُمرت في بحيرة سوداء، وغرقت في النوم ببهجةٍ مفرطةٍ وبالغت في الشخير. إلا أنّ يده وقعت على كتفي، وأيقظني من سباتي العميق. ربما كان الوقت يشير إلى الثانية بعد الظهر. وقف أمامي مستعدًا للرحيل، حاملًا أمتعته وحقيبةً على ظهره. سألني: «ما سبب حضورك للنوم هنا؟»، كانت عيناه هادئتين كزهر الزعتر، فتساءلتُ للحظةٍ عن دور الخمر في إثارة هذه القصة داخل ذهني. لكن في اللحظة التالية، ظهرت ظلالٌ عميقة في عينيه، وانكمشت

شفتاه برقةٍ كأنها أفعى صغيرة، فعلمت بثقةٍ أنه يفهم سبب وجودي هنا. أجبت: «نعم، هذا هو السبب». رفع كتفيه ليظهر عدم اكتراثٍ من جهته. لكن، شعرت كأن ثقلًا غامضًا يضغط على قلبي، قلت له:

«تفضّل بالجلوسِ بجواري، لدي شيءٌ هامٌ أريد أن أخبرك به يا فتى. لقد كنت شجاعًا جدًا بكتمانك كلّ هذا الموضوع بداخلك. لكنك ارتكبت خطأً، لم تكن مخطئًا تمامًا، بل على العكس تمامًا. لقد كان من الصواب أن تشاركني هذا الأمر، ولكنك الآن مخطئ لو اعتقدت أنك ستنساه بسهولة. استمع جيدًا، لا تغادر فورًا. لا، لست أقصد ذلك. اترك هذه المنطقة، نعم، هذا جيد، ولكن لا تعد إلى بلدك فورًا. إن عدت، ستُغلق الأبواب حولك ولن تتمكن من التعافي مرةً أخرى، أبدًا. سيظلّ هذا الشيء يرافقك في كلّ مكانٍ وسيكون جزءًا من الهواء الذي تتنفسه، حتى نهاية الزمان. هل تفهمني؟ لا تذهب إلى بلدك فورًا. اسمع: مواجهة مثل هذه الهموم ستستغرق وقتًا طويلًا يا فتى، وحتى بعد أن تعتقد أنك انتصرت عليها، لا تظن أن كل شيء قد انتهى. عليك أن تنهض وتبدأ من جديد؛ ففي النهاية، الحزن سيبقى مثل الغبار.

صدقني؛ صدق هذا الرجل العجوز الذي لا يزال يعرف قليلًا كيف يتحرك في الحياة. والآن استمع إليّ جيدًا: سأنطلق إلى مزرعة أنجيل، لادولوار، سأكتشف ما يجري هناك وأعود لأطلعك. انتظرني. اذهب نحو جهة بيرويس في إقليم دورانس، وعند الجسر، انعطف على الطريق الترابية على يمينك واسأل الناس عن مزرعة إسمينارد؛ إنها تقع في أعماق حقل مزين بثلاثة أشجار صنوبر. قل لهم إنك زائر قادم من طرفي. حاول أن تقابل المرأة أولًا؛ فهي التي تدير أمور المكان، ولأكون صادقًا، لقد اضطجعت معها لأكثر من عام. قل لها: ‹إنني قادم بطلب من أميدي›. ستكون الأمور على ما يرام. افعل ما هو مطلوب منك. احترس؛ هناك خنزيرة سوداء قد تعضك، قدم لها الطعام دون أن تدخل الحظيرة. حسنًا، سأتعرّف بسرعة على كل ما أريد معرفته، وسأعود لأخبرك. بعد ذلك، بعد ذلك فقط يا فتى، عد إلى موطنك. سنكون قد أنجزنا كل ما هو ضروري».

كان يحدق إليّ دون أن يراني، كأن نظرته تمتد على جانبي رأسي لتعبر الجدران.

«حسنًا»، قال في النهاية، «سأنتظرك هناك». ثم وضع حقيبته على الأرض وبدأ العدّ بأصابعه.

«سأنتظرك حتى نوفمبر، حتى منتصف نوفمبر، لا يمكنني الانتظار أكثر من ذلك».

أخبرته: «سأكون عندك قبل ذلك يا فتى».

رفع حقيبته وانصرف عبر السلالم. في الأسفل، حوّل وجهه قليلًا نحوي ليودعني بعينيه ثم انطلق. لقد استغرقت ساعة أخرى في النوم! عندما نَعِدُ بشيء، يجب أن نفي بالوعد فورًا، وإلا سيتداخل في الوسط ما نريد فعله ونتعطل عن كثير من الأمور. نمت على عجل، كان هذا هو الأكثر إلحاحًا، ثم بدأت جمع أغراضي ووضعها في الحقيبة، ولكنني تركت خارجًا بذلتي الزرقاء الجميلة التي تشبه ألوان اللافندر ونقاء الماء الصافي. أردت أن أبدو بأفضل مظهر عند وصولي إلى مزرعة لادولوار.

كان بوسعي -لو أردت- أن أزور بابتيستان لحلاقة ذقني. لكن بعد تأمل عميق، قررت أن أترك هذا الأمر وأبقي لحيتي التي تضفي عليّ بريقًا يعكس نضارة الروح بدلًا من أن أحلقها. إن اللحية تلهم الثقة وتظهر نضوجًا وحكمةً في الشكل. تأثرت بشدة بهذه الفكرة وكذلك بملابسي، فقد أحببت الانطباع الذي تظهره. كانت خطوة مدروسة تمامًا، إذ أردت أن أبدو بمظهر لائق وكريم بل وأنيق، يترك انطباعًا جديًا ولا يحمل أي خطر تجاه النساء.

عدت إلى الحقل عند الساعة السادسة لأجد العمل قد أُنجز على أتمّ وجه، فلم أكن بحاجة إلى المساهمة بأي عمل إضافي. كان من المتأخر الآن أن أتوجه نحو لادولوار، حيث يتوجب أن أعبر نهر دورانس سيرًا على الأقدام، فلن أصل هناك قبل الساعة التاسعة، وكان ذلك سيفسد تمامًا انطباع لحيتي ومظهري. بالمقابل، قدمت استقالتي من العمل واستلمت راتبي، لم يكن منطقيًا أن أعود إلى العمل من جديد.

أخفيت حقيبتي تحت القش وذهبت ويداي في جيبيّ لأمضي بعض الوقت في الحقول كأنني رجل بورجوازي. في تلك الليلة، وأنا أستلقي للنوم، شعرت فجأة بتعاطف عميق تجاه حكاية زميلي عن الأرض، التي وجدتها غريبة في البداية، ولكن

كم هي ذات أهمية بالنسبة إلينا، الأرض الصلبة والجميلة. لست من هذه المنطقة تحديدًا، بل أقول دائمًا إنني من كل مكان. ولكن في أعماقي، فإنني من هذه الأرض، ماريغرات، الأرض التي تحمل الحبوب الثقيلة وتحيط بها أشجار السرو والمنازل الريفية الصغيرة، العشب الذي تغمره الشمس، والأنهار الجافة التي تجري فيها بدلًا عن الماء صوت العربات، وعبير الزعتر وضحك الراعيات. لذلك، أنا فخور بأنني من هذه الأرض فهي التي جبلتني وصنعت أسلوب تفكيري.

١٧

لم أكن أعرف مكان العبور. كنتُ أبحث عنه بعيني، لكنني لم أجد شيئًا. ولم يكن من الحكمة أن أتصرف بجرأةٍ وتهور دون أن أدرك الخطر تمامًا. إذ في هذا الماء الجميل والعميق، يمكن لقدم الإنسان أن تتعثر فيجرفه التيار، وحتى في حالة نجاته، قد يُعثر عليه بعد أيامٍ داخل حفرةٍ ببطنٍ كبير يشبه بطيخة ضخمة.

اعتليت المنحدرات المفروشة بالحصى على طول نهر دورانس النابض بالحياة. ثمة جزرٌ صغيرةٌ من أشجار البتولا وبحيراتٌ ضحلة وهادئة تلهو فيها الأسماك بالقفز من الماء والارتطام كالصفعات. واصلت السير على طول النهر، وكانت لادولوار مختفيةً كالعادة خلف كتف تلة. وتابعت رحلتي بالصعود.

أخيرًا، رأيت جانبًا غير عميق من نهر دورانس الذي يلعب بأحجاره البيضاء، فقلت لنفسي: «يا لي من عجوز! إذا لم أقطع النهر من هنا، فقد يحدث أن أضطر إلى السير على طول الجانب حتى أصل إلى إيطاليا».

عبرت النهر وابتل بطني، لكن الصباح كان جميلًا.

هبطت في وسط مجموعةٍ من أشجار الجنستاوات الكثيفة والمتشابكة تشابكًا أكثر تعقيدًا من قبعة قش. كانت حشائش الشوك الحادة تشبه السكاكين، لقد زادت الطين بلة! صرخت بغضب: «ملعونٌ هذا اليوم!»، لم يساعدني هذا الصراخ على شيء، لكنه خفف عليّ من الضغط والقلق، وواصلت التنقل على طريقٍ صغيرٍ مغبرٍ يلتفّ بجانب الجبل.

عليّ أن أخبركم بأن الجانب الآخر من النهر ليس بمثل سخاء وجمال منطقة ماريغرات، بل هو مجرد شريطٍ صغيرٍ من الأرض بين التل وغابات دورانس المجنونة. ربما لا يتجاوز عرضه مئة مترٍ في أوسع أماكنه. على الجانب الأول الماء، وأي ماء هو؟ إنه الغضب الجارف للجبال. وعلى الجانب الآخر التل، وأي تل هو؟ إنه تل فالونسول؛ ليس فيه إلا الصخور والشوك والمنحدرات الشديدة التي تبدو كأنها تصعد نحو السماء، وفوقها الله يحكم بقوة برقه ورعده الإلهي على سائر الفصول. هل

يمكنكم تصور ذلك؟ كل هذا لأوضح لكم أنني سافرت على هذا الطريق مدة ساعة تقريبًا دون أن أرى أحدًا، دون أن أمر بمزرعة، ودون أن أسمع ينبوعًا، وفي التراب لا أثر لمرور العجلات، لا شيء سوى آثار مخالب الغربان.

من حينٍ إلى آخر، كانت تتكشف في جنبات الجبل هاوية تشبه فمًا مفتوحًا، حيث ألقت العواصف أحجارًا عديدة في جوفها.

وأخيرًا، وصلت إلى لادولوار. قابلتني المزرعة بالقرب من الهضبة، حظيرتها تلامس الصخر الصلب. أمامها، تقف شجرتا دُلب ومرج من البرسيم الحجازي. يمتد هذا المرج مسافة مئتي خطوة، افترشته المياه بشكل غير منتظم، فعرّت أجزاءً من التربة ونمت حوله نباتات برية تتراقص حول المياه المتدفقة.

بجوار المزرعة، يمتد بستان متواضع أخضر ورطب، وتتلألأ أفرع الأشجار بياضًا من أثر الرطوبة. ومن الجهة المقابلة، يقف بيت قديم من الطوب. إنه مبنى طويل قليلًا وواسع بما يكفي، لكنه يبدو متعفنًا ومكسورًا. هذه هي مزرعة لادولوار، ربما تستدل من أخشاب الأبواب والسقف المتهالك أنها ليست أهلًا للثراء.

عندما نظرت إلى البيت في هذا المكان القاسي والمهجور، تلاشت الشجاعة في نفسي. لم أعد متأكدًا إن كان ينبغي أن أستمر أم أتراجع، لكنني بقيت أتفكر في الأمر وجلست لآكل بعض اللقم من طعامي.

في نهاية المطاف، قررت أن أخوض محاولتي. اختبأت بين الأشجار وارتديت بذلتي الزرقاء الجميلة. وعندما جربت ثيابي، أدركت أنني أبدو رائعًا، ولكنني كنت لا أزال مترددًا.

وبينما رحت أفكر في ما يجب أن أفعل، ظهر قطيع من الماعز من حول الجبل. وانضمت مجموعات أخرى تباعًا، وفي المقدمة كان هناك صبي يمشي بجانبهم. كان الصبي يقرص رأسه مشغولًا بملاعبة حشرة المزمارية التي يحملها بيده.

عندما لاحظ الماعز وجودي، توقفوا جميعًا ورفعوا قوائمهم الأمامية باتجاهي كأنها تحية خاصة. لا شك أن المظهر الخارجي يلعب دورًا هامًا، حتى إن أنكروا ذلك.

لو لم أرتد هذه الملابس الجميلة، لهربوا جميعًا.

سألت الصبي الصغير: أهذه لادولوار؟ فأجاب «نعم». ثم سألته عن اسم المزرعة، هل هي باربارو؟ فأجاب «نعم» مرة أخرى وهو يمسك الحشرة المزمارية في يده.

سألته إذا كان بإمكانه مساعدتي في إيجاد عمل في الحقل، فأجاب: «لا أعلم، أنا لست من هنا، أنا من روسيت».

شعرت بشيء من الارتياح بعد اطلاعي على هذه المعلومات. كانت هناك فرصة للعمل، وهذا يكفي لتشجيعي. عندما نظرت إلى لادولوار العنيدة وأرضها القاسية، غابت الشجاعة بداخلي، وأصبحت أفكر: «هل سأذهب؟ أم أبقى؟»

لست أكثر جبنًا من غيري، ولكن الشر كان ينبثق من كل مكان. كان ينبعث من هذه الصخور القاسية، ومن لون النهار المريض، ومن هذه الأشجار الملتوية والأتربة المتطايرة، وخصوصًا من لادولوار هذه، وأرضها الجافة والقاحلة مثل قشرة قديمة. علاوة على ذلك، كان هناك ألم ألبين الذي يؤرق قلبي، وأفكار أخرى تجول في عقلي. كل هذا الجو دفعني نحو المزرعة، كانت رغبتي في الذهاب قوية جدًّا!

وبينما كانت الأفكار تتصارع في عقلي، اندفعت بخطواتٍ ثابتة تحت ضوء النهار، متأنقًا ببذلتي الزرقاء وقبعتي، كانت الساعة نحو الثالثة بعد الظهر حسب موقع الشمس في السماء. وفي هذا التوقيت، ظهر رجلٌ بزاوية الطريق، شخصٌ لا يُصدق! كان يرتدي ملابس سوداء رسمية، وربطة عنق جميلة، وقبعة أنيقة. كان يتعرق بغزارة ووجهه محمرٌ بشدة. لفت انتباهي، فقررت التوقف والتحدث معه.

وبعد أن سألته عن المكان أجابني: «أهلًا، ليست لدي معرفة أكثر منك. إنني ذاهب للاستفسار عن جنازة حماة جوستينيان في لادولوار، لم أصل هناك بعد، ولكن بدا لي كأن أهل هذا المكان مستاؤون من وجودي. ليس الحظ يحالفني اليوم». أجبته: «لا بأس، أتوقع أنك ستذهب إلى هناك على أي حال. أتمنى لك التوفيق!».

مضيت في الطريق الذي كان يلتف بعيدًا عن المزرعة ويحيط بحقول الحشائش. وفي نهايته، عندما وصلت تحت شجرتي البلوط الكبيرتين، افتتِحَ فجأةً باب منزل

مزرعة لادولوار، وخرج منه رجل. كان طويل القامة، على وجهه شعر أسود يشبه الفراء، ذقنه سميك يبرز للأمام مثل مجرفة، وعيناه لامعتان. كانت ذراعه اليمنى ملفوفة في قماش أحمر، وفي يده اليسرى يمسك بندقية. سألني: «أين تخال نفسك ذاهبًا؟».

«عذرًا»، قلت، وتوقفت على بعد عشر خطوات منه مثلما يحترس الناس مع كلب شرس، «جئت لأرى إذا كنتم بحاجة إلى عامل هنا مصادفة، ربما؟»، شعرت أنه يمعن في النظر إليّ ويدقق في ملابسي الزرقاء وطريقتي في المشي، وظهرت ابتسامة قاسية على وجهه. أجابني قائلًا: «حسنًا، حسنًا، ارحل من هنا. لا نحتاج إليك».

«يا سيدي»، أقول له، «لستُ شخصًا سيئًا، كل إنسان له فرصته في الحياة. إنني لا أطلب شيئًا مجانًا، فأنا قادر على العمل ومستعد للانصياع للأوامر. خذني، لقد أصبحت عجوزًا، لم يعد أحد يرغب في توظيفي في المنازل الكبيرة؛ فإذا لم يرغب أحد في توظيفي في المنازل الصغيرة أيضًا، هل أموت جوعًا؟».

«يمكنك أن تموت»، قال، بصوت جاف مثل العود. ثم أضاف: «سيظل هناك دائمًا كثير من أمثالك. هيا، ارحل!».

«يا سيدي...»، لكنه لا يسمح لي بأن أكمل كلامي.

«هل تريد أن أطلق النار عليك ببندقيتي؟» يصرخ، «قل لي، هل هذا ما تريد؟»، ثم رفع بندقيته وحاول أن يوجهها نحوي بذراعه المصابة، لكنه لم يقدر. ولأقول لكم الحقيقة، كنت على وشك الفرار.

«ما الذي يحدث؟»، يقول صوت امرأة من الداخل. سأصف لكم هذه المرأة لاحقًا، لأنني جمعت كل المعلومات حول قضيتي منها بالتدريج، وكانت هي التي ساعدتني على إكمال عملي ببراعة كما يفعل الحرفيون الماهرون. على أي حال، شعرت بالسرور؛ فقط من خلال سماع صوتها، قلت لنفسي: «الآن، لن يجرؤ على إطلاق النار». ليس أنها كانت تحاول المزاح، بالطبع لا! أو أنها كانت امرأة قاسية، لا، لا؛ بالعكس، كانت تبدو عطوفة؛ ولكنني شعرت بالاطمئنان تجاهها، وكنت متأكدًا من

شعوري.

«توقف عن هذا...»، قالت، ثم ظهرت عند عتبة الباب بالتوازي مع صوتها. فرفعت قبعتي كما جرت العادات: «مرحبًا، سيدتي».

كانت بالفعل تمسك بذراع السيد وتتحدث بقوة، ورغم أنها بدت خائفة، ذلك واضح، فإنها حازمة أيضًا، فهي امرأة صارمة كما يبدو.

صرخت باتجاهه: «متى ستتوقف عن حمل البندقية يا كلاريوس؟ ألا تزال تحملها دومًا؟ أي شخص يمر من هنا ليطلب ماءً من بئرك أو قطعة خبز؟ هل البندقية هي الحل مع الجميع؟ هل نسيت اللطف؟ لم أعد أعرفك يا رجلي. ماذا فعل لك هذا الرجل؟ ألم تنظر إليه؟ إنه رجل عجوز، ربما لم تلاحظ هذا».

رجل عجوز؟ آه، نعم، لكنني ما زلت قادرًا على إمتاعها حتى إن كنت عجوزًا... حسنًا، لا داعي لكل هذا، أنا أتحدث بحماقة. هذه المرأة التي قدّرتها حق قدرها لاحقًا أدخلت السعادة إلى حياتي المتعفنة.

كانت تضرب على ظهره بلكمات خفيفة، كما تفعل مع الحصان الخائف، فانخفضت يده التي تحمل البندقية، وعلّق البندقية على الحائط. حينها، قررت المخاطرة والتقدم ببطء نحو لادولوار ودخول ظلال المنزل، لأن الفكرة كانت تجذبني كالخطاف الحديدي.

«ما الذي تريده أيها الرجل الشجاع؟»، قالت.

«سيدتي، أنا أبحث عن عمل. كنت أسأل إذا كانت هناك فرصة للعمل في الحظيرة... أو في أي عمل آخر...»، بدا الرجل مذهولًا وهو يحدق بأقدامه، ثم بدأ بتدليك ذراعه المُلفوفة بالقماش. هذه الذراع هي ما لفت انتباه السيدة.

«قد نتوصل إلى اتفاق»، قالت وهي تنظر إلى زوجها. «لا تتصرف كالبغل؛ فأنت تبدو في حاجة إلى ثلاثة أشهر من الراحة. ما الأجر الذي ترغب فيه يا رجل؟».

وبينما كنت أفكر في سعرٍ معقول، ليس غاليًا جدًا، لأنني كنت أرغب في البقاء،

وليس رخيصًا جدًا، كي لا أعطي انطباعًا سيئًا، قالت لي:

«ستكون مسؤولًا عن درس الذرة وطحنها بالكامل؛ لدينا بغل ولدينا الخادم ساتورنين، ولكننا لا نعول عليه كثيرًا».

قلت: «لا مشكلة». اتفقنا على ثلاثين سنتًا في اليوم، بالإضافة إلى وجبة الطعام والمبيت. ولكي أبدي حسن النية، قلت لهم: «أستطيع أن أبدأ العمل فورًا، لم ينتهِ النهار بعد. وما أنجزه اليوم، سيترك لي مجالًا أكبر لمزيد من العمل غدًا». توصلنا إلى تفاهم بحيث أحرص على تنظيف حظيرة الحيوانات وتجهيز مكان الدرس. خلعت سترتي الزرقاء وطويتها بعناية، بحيث رتبتها على نحو لائق، كنت أعلم أن النساء يحببن ذلك، وفعلًا، كانت السيدة تراقبني وظهر على وجهها نوع من الرضا.

إنها حقًا لحظة لا تصدق! كان يبدو الأمر كأنه لا يصدق. إن هؤلاء الناس كانوا على استعداد لتوظيفي في عملية الدرس طوال الليل، ولكن لا يهم، فأنا موافق. وعندما نظرت إلى السيد من كثب، لم يبدُ كأنه شخص سيئ.

تحت لحيته الكبيرة السوداء المتشابكة، يمكن رؤية ملامح وجهه بوضوح، فهو يملك جمالًا مميزًا. عيناه، على الرغم من أنهما مظلمتان ومشتعلتان، فإنهما تشعان أحيانًا بلطف مثل مياه النهر الصافية، وتنبعث منهما مشاعر طيبة ولطيفة.

في الأمور العملية، دائمًا ما أكون سريعًا في التعلم واتباع الطريق الصحيح. فأنا أعمل بجد وألتزم الصمت. يبدو أن الجميع يرون فيّ هذا التصميم، لذلك لا توجد حاجة إلى مراقبتي، وهذا يمنحني وقت فراغ بعد ذلك لقضائه كيفما أريد. لذا أحمل المدقة بثقة كأنني خبير محنك.

ما إن ألف زاوية المزرعة، أجد نفسي أواجه رجلًا يبدو مضحكًا جدًا. لو كنا في مكان آخر، لانفجرت بالضحك طوال يومين.

الآن، تخيلوا رجلًا يرتدي ملابس غير مرتبة، وأذناه تشبه أذني الحمار، ووجهه مغطى بشعر أحمر يتناثر بين خديه الجافين، فمه الكبير لا يكف عن الضحك، وجبينه يمتد إلى الوراء كأنه تاج من الشعر الأحمر. كان يضحك ويصفق لنفسه. لم أستطع أن

أمرّ من جانبه دون أن أتحدث معه، فسألته: «هل أنت بخير؟ وما الذي تفعله هنا؟»، ولما استغربَ، أضفت قائلًا: «أنا ذاهب للعمل»، فسألني: «هل التقيت بالفعل صاحبَ العمل؟»، فأجبته: «نعم بالطبع»، يسألني: «ألم تتعرض لإطلاق النار؟»، أجيبه: «إطلاق نار! من أين جئت بهذه الفكرة؟ هل أبدو مثل شخص يتعرض لإطلاق النار، ألا تراني؟ بالطبع قابلت صاحب العمل، لقد صافحني وقال: ‹مرحبًا يا صديقي، هلا تفضلت بتنظيف الإسطبل؟›، لم أستطع أن أرفض له طلبًا، ولهذا أنا هنا. تفضل!»، تركته وهو يضحك ويتمتم بكلام غير مفهوم. هذا الرجل هو ساتورنين.

في المساء، وجدت طبقي بجواره، وكان يبدو مريضًا بداء الضحك، ليس يقدر على كبح الضحك، وهذا لم يكن جيدًا البتة في مثل هذا المنزل. المضيفة -وكانوا ينادونها فيلومين- تسير بصمت وتكز على أسنانها وهي تحمل مغرفتها الكبيرة التي تمتلئ دائمًا بمقدار كبير من حساء الكرنب.

كانت تجيد ترتيب الأمور كما يجب: مغرفة للسيد، ومغرفة لساتورنين، ومغرفة للقادم الجديد، ومغرفة لها. كانت امرأة نحيلة وبلا تميز يذكر تحت ثيابها، كان القسم العلوي من ثوبها ينتفخ قليلًا من الأمام بسبب منديلها الذي تضعه هناك. لو نَحتُّ رأس امرأة من الخشب بسكيني، لكان يشبه رأسها. كان عنقها مثل عنق الدجاجة مشدودًا وعصبيًا. لكن كان هناك جمال في فمها، وكانت عيناها دائمًا رطبتين وتعكسان طيبتها.

في الواقع، هي وكلاريوس، الذي كان يجلس مائلًا على طبق حسائه ويكز على أسنانه عندما تؤلمه ذراعه، كانوا أشخاصًا طيبين، أشخاصًا طيبين حقًا. لكن حصل ما حصل. كانت الدموع تنهمر من عينيها طوال الوقت، أمّا هو فلم يكن يفكر إلّا في بندقيته. تخيلوا ذلك! في هذه الأثناء، كان ساتورنين يضحك، وكان ذلك مزعجًا جدًا، صدقوني.

كانت وجبة العشاء تقام في غرفة كبيرة مبلطة بالحصى وذات سقف عالٍ. أما الإضاءة فتأتي من المدفأة، حيث كانت النار خافتة لأننا لا نزال في فصل الصيف. ومن الباب المفتوح، يدخل المساء بنجومه وانعكاساتها كأنه في منزله. في الزاوية،

كانت هناك خزانة بها تفاح يجفّ. رائحته جميلة ولكنها تبعث الحزن. وبجانب المدفأة كانت هناك بالوعة.

عندما دخلت هذا المكان لأول مرة ونظرت من حولي، لاحظت البالوعة. أما على الرف الأول، بين الأواني الطينية السميكة والصحون، فلاحظت فنجانًا بورسلانيًا جميلًا أزرق اللون عليه نقاط بيضاء، فنجانًا رقيقًا وأنيقًا لفت انتباهي. كان مقلوبًا على صحنه كما يجب أن تكون الأكواب النظيفة في بيت مُرتَّب. ولأن مشهد البيت البائس أثر فيّ تأثيرًا كبيرًا، في أثناء تناولي الحساء شعرت بمرارة في حنجرتي. وفي تلك الأثناء، أقول لكم، كان ساتورنين يضحك.

كانت ضحكاته مثل الضحك، لا أكثر، أو بالأحرى، ربما كان ضحكًا طيبًا ونقيًا، كأن كل شيء على ما يرام، وكأنه يرى الحياة كحديقة في شهر مايو تحت السماء الزرقاء الصافية، والزهور تحلق من حوله. أو ربما لم يكن ضحكًا حقيقيًا. هذا صعب التفسير. سأحاول شرح ذلك. تخيلوا أنه كان ضحكًا طيبًا ونقيًا، ثم فجأة يتجمد كالماء. تخيلوا ذلك. إنه يتجمد بسبب حدثٍ مفاجئ يدفع الضحك إلى التجمد فيظل متجمدًا ككتلة جليدية. ثم يمر الوقت وتعود الحياة مجددًا، دافئة كالذوبان ويبدأ الضحك بالتدفق مجددًا، لكنه يصبح مشوبًا بالارتباك، تمامًا مثل المياه المتجمدة التي تذوب. إليكم التوضيح، إن ضحك ساتورنين، في الواقع، لم يكن بعيدًا كثيرًا عن عبوس السيد كلاريوس ودموع السيدة فيلومين. كان يقلقني ويقتل شهيتي. هكذا، كنت أجلس أمام كلاريوس الذي يضم ذراعه المكسورة بقطعة من القماش الأحمر، وعلى وجهه ألمٌ محموم، ألم يكابد داخله مثل فئرانٍ تأكله. إلى جانبه، تجلس السيدة المضيفة بعد أن وزعت علينا الحساء. كان لديها خطوط طويلة تحت عينيها حيث ينمحي الجلد بفعل الدموع، وكان جفنها متآكلًا وأحمرَ. كانت تلجأ إلى الدموع كثيرًا للتخفيف من آلامها.

ثم فجأة، ينطلق ساتورنين في الضحك. رفع السيد رأسه وكانت نظرته مشتتة. تنهدت الأم. واختلطت أصوات أكوابنا وملاعقنا وصوت ساتورنين الذي كان يعض شفتيه ويحاول أن يقول لنفسه: «هذا ليس لائقًا، ألا ترى أنهم تعساء؟ هل انتهيت من

السخافة؟»، ثم ينفجر ضاحكًا بصوت مرتفع جدًا حتى يضطر إلى أن يتظاهر بالكحة ويكتم ضحكاته في منديله. في النهاية، كانت لدي شفقة كبيرة تجاه الثلاثة، فقد وضعت طبقي جانبًا وقلت: «مساء الخير للجميع».

٧

منذ الساعة الخامسة صباحًا، أشرع في تنظيف الساحة وتجهيز الحفرة، ثم أبحث عن العمود. كان الجميع لا يزالون نيامًا. وكذلك كانت لادولوار نائمة، هذا المكان المتواضع وسط الأراضي القاحلة. لكن دعوني أقول لكم، تلك المزارع البسيطة تعيش حياة مكتملة النضج. وأقول: هذه هي الحياة، حياة بسيطة تحمل في طياتها العذوبة والطيبة. أما البيوت الضخمة والثرية، فتعيش حياة مترفة ومكلفة، ولا تثير اهتمامي البتة. إنها تصرخ بأنانية جشعة، تستنزف العالم المحيط بها بطلباتها المزعجة.

كان جسد لادولوار الهزيل يكشف عن الفقر والحاجة. وكان هذا مؤلمًا عند النظر إليه، ولكن في الوقت نفسه، كان له تأثيره فيّ. لقد قررت العمل بجد، كنت بحاجة إلى عمودٍ قوي ومتين ليكون محور الدوران في عملية الدرس، لكنني لم أجد ما يناسبني في الحظيرة والمخزن. فقررت أخيرًا أن أحمل الفأس وأتوجه لقطع فرعٍ جميل من أشجار الصفصاف بجوار النهر، فرع مستقيم وسميك كفخذي. ثم غرسته بعد ذلك في وسط الساحة وعملت على تثبيته بحجارة قوية.

كان ذلك المنظر جميلًا بالفعل، يشبه علمًا يرفرف في ضوء الصباح. تصورت أنني أسمع صوت جميع الطيور من حولي تتحدث: «ها نحن أولاء نمر بلادولوار أخيرًا، هل حصل هناك تغيير؟»، نعم، يا أصدقائي، ثمة تغيير، وذلك بفضل تحسينات أميدي وجهوده الجادة.

عندما أتعهد بأمرٍ ما، فإنني أتفانى فيه بكل ما أملك. وقد أخذت هذه المهمة على محمل الجد، نعم. عندما رجعت في الليل أعطتني السيدة فيلومين وسادة وبطانية ولحافًا لتلك الليلة. سأحكي لكم عن تلك الأحداث لاحقًا بتفصيل أكبر.

عندما وصل السيد، وجد كل شيء مرتبًا في دائرة على الساحة: حزم السنابل، وآلة الدرس، والأغطية، وأكياس الحبوب، كلها جاهزة للقتال، كنت أنا والبغل مثل الجنديين المستعدين لخوض المعركة. قال لي بسعادة: «أنت فنان!»، ثم تجول حول الأشياء ليرى العمل، وعندما وصل خلف ظهري، لمس كتفي، فلفت نظري، وكان يريد

أن يصافحني، فاستغربت. ثم قال لي: «أرجو أنك لم تغضب مني؟».

أغضب منه؟ لقد كنت سعيدًا جدًا بمساعدته، لا يعقل أن أكون غاضبًا منه. لقد كنت مصابًا بمرض الرغبة في مساعدة الآخرين، ولو كنت غنيًا لسخرت ثروتي للتخفيف من معاناة الناس. على الرغم من أنني لم أتمكن دائمًا من إعطاء الكثير بسبب فقري، فإنني كنت دائمًا أقدم مساهماتي من خلال عملي أو المساعدة بذراعي. كان ذلك يسعدني ويشعر قلبي بالرضا. حتى أنني أحيانًا كنت أقدم مساعدة زائدة أو أحاول أشياء غير مجدية.

هذه المزرعة البائسة والأشخاص الثلاثة الذين يعيشون فيها، بمن فيهم ساتورنين الذي يعاني مرضَ الضحك، أرّقوا ليلتي بالتفكير. قلت لنفسي: «إذا كنت لا ترغب في أن تكون مثل الخنزير، فيجب أن تساعد هؤلاء الثلاثة بدرس الذرة. فالسيد يعاني كسرًا في ذراعه، وسيأتي الناس لشراء الذرة المكدسة، ولأنّ مزاجه سيئ فإن هذا لن يؤدي إلى نتائج جيدة.

كنت مشتتًا بعض الشيء بين هذه الأفكار، وهذا لا يتناسب مع أولوية مساعدة ألبين الذي كان بحاجة أكبر إلى المساعدة.

للأشياء السيئة، ثمة دائمًا وقت. كنت سأنتظر حتى منتصف نوفمبر لألتقي ألبين في المكان الذي اتفقنا عليه، فهو سيكون هناك بالتأكيد. كان من الأفضل أن يؤجل رحيله لأبعد وقت ممكن حتى أستطيع تجهيز نفسي للعمل هنا حتى تشفى ذراع السيد. خطة ترتيب المهمة بدأت تكبر في ذهني: «ستستغرق عملية حصد الذرة عشرة أيام، ثم سأدرس المحصول وأخزّنه، بعد شهر سيكون المحصول جاهزًا، ولن يتبقى سوى خمسة عشر يومًا لأنهي المهمة. ربما يبدو هذا طويلًا عندما ينجزه شخص واحد، لكن بفضل تعاون الآخرين الذين ساعدوني ودعموني، سيكون الأمر سهلًا. لقد عملوا جاهدين، وأثبتوا قيمتهم، وقدّموا مساعدة كبيرة.

عندما ينام البغل، يأخذ ساتورنين اللجام ويوقظه بلطف. كان يتأمل الوضع ويبحث عن حبوب الذرة، ثم يتركها تسقط من خلال أصابعه ليقيس وزنها ويضحك. هذه المرة، ضحكته لم تكن عابسة، بل كانت تعكس فرحته بعودة العمل. ورغم

إصابته في ذراعه، لم يتوقف كلاريوس عن العمل، فقد أكمل مهمته باستخدام شوكة بحذر ودون أن يكز على أسنانه أو يتوجع.

عند الساعة العاشرة، صاحت السيدة فيلومين بعفوية طبيعية: «حان وقت الشوربة»، كانت هذه اللحظة رائعة!

في اليوم التالي، بعد ساعة من شروق الشمس، فوجئت بكلاريوس يفقد وعيه ويسقط على القش. لحسن الحظ، لم يسقط على جانب ذراعه المصابة. ركضت نحوه وحملته إلى فراشه. توقف البغل عن العمل فورًا، بالطبع كان يستغل مثل هذه الفرصة. صرخت نحو ساتورنين: «واصل الدرس، هيا لنتحرك». وبقيت مع السيدة فيلومين؛ ليس بمقدورها تحمُّل مزيد من الحزن، حياتها مكتظة به.

في وقت الغداء، توصلت برفقة السيدة فيلومين إلى قرار بأنها ستأخذ كلاريوس إلى المدينة في اليوم التالي ليرى الطبيب. في الصباح التالي وبعد أن استيقظت مبكرًا، نظفت البغل وجهّزته للرحلة. استعدت السيدة فيلومين في السادسة صباحًا وبدت جميلة قليلًا.

ليست المدينة مكانًا يمكن أن يبدي فيه المرء أحزانه وألمه بوضوح على وجهه، فهي ممتلئة بالناس الذين يتحدثون هنا وهناك، وكل واحد يحافظ على كرامته. يُفضَل أن يبدو الشخص بخير في أعين الآخرين بدلًا من أن يثير شفقتهم.

خرجت السيدة محتشمة، مرتديةً باروكة سوداء جميلة ومنسقة بعناية، ذات شعر ناعم ومتساوٍ لا يفرّق بين خصلة وأخرى، وبدت حينها أنيقةً تمامًا مثل سيدة متأنقة ومنظمة. وكانت ترتدي ثيابًا من الصوف الرمادي، وفي خصرها بروشات مصنوعات من الأصداف.

لو كنت سأقول شيئًا من كلمات الدعابة لقلت: «لقد ركلتِ خزانة الملابس»، ولكنني امتنعت عن ذلك، إذ ارتاح عقلي فقط برؤيتها بهذا الترتيب الرائع، وذكّرتني بألبين. لذلك، قرّرت أن أبعد رغبة المزاح وأتجاهل مظهرها المبهج.

وقفت أمامها وأصغيت إليها وهي تقول: «يا فتى، أنا سعيدة جدًا بانفرادنا في هذه

اللحظة. أريد أن أخبرك بشيء هام. قبل أن أبدأ الكلام، هلا تأكّدت من أنه لا يوجد أحد وراء الباب؟ لا؟ حسنًا. أنا أراك شخصًا صالحًا ومخلصًا جدًا، وهذا يسعد قلبي بوجودك هنا. ولكن الأهم من ذلك: أرغب في التحدث إليك عن الوضع الذي نعيشه في المزرعة لكي لا تسمع أشياء لا تتوافق مع الحقيقة. إننا لا نتحدث كثيرًا، ولكن ليس هذا بسبب الكبرياء. عندما رأيتك لأول مرة، كان كلاريوس يستقبلك بالبندقية، لكنّ هذا لم يكن تعبيرًا عن الشر بداخله. إنه يظهر هذا السلوك لأنه مكتئب جدًا بسبب الظروف الصعبة. الهموم تحيط به مثل عش من الدبابير. ثم لمست صدرها وتابعت: «إنّي أشعر بثقل البؤس على قلبي، حتى يكاد يكبّلني تمامًا. إنه يقتلنا، يا عزيزي. عندما تراني أحيانًا لا أحرك ساكنًا تجاه المغرفة المعلقة في المطبخ، أو أنني لا أخدمك على الفور، فلا تلومني، اسحب بنفسك من الطبق ما تحتاج إليه، واخدم نفسك كما لو كنت في منزلك. وإذا صادفتك في الحقول أو بالقرب من المنزل ولم ألق عليك التحية، فلا تعتبر ذلك انطواءً مني، إنما أبحثُ فقط عن مكان هادئ ليَخِفّ شيء من هذا البؤس الذي يتراكم عليّ». لقد أثقلتني تلك الكلمات حتى شعرتُ بالضيق ولم أعرف ماذا أقول لها بعد ذلك.

أكملت قائلة: «لقد صرت امرأة حزينة، كنت أهوى الأشياء النظيفة والمرتبة، وكنت أحب التفكير والكلمات».

بدت لي كأنها ستتلو عليّ قصة من الإنجيل، وصراحةً، لم أستطع أن أستمع إليها دون أن أشاركها كل ما يؤرقني. لكنها توقفت عن الكلام لتواصل حديثها الداخلي.

ثم قالت: «أتمنى منك أن تكون متساهلًا مع كلاريوس؛ حاول أن تلتمس له الأعذار عن الكلام البذيء الذي قد يقوله لك، واعمل على إغلاق أذنيك. كلاريوس... إنه أشجع رجل في المنطقة بلا شك. في السابق، وليس منذ زمن بعيد، كان الناس يأتون ليلتمسوا شجاعته. كان لا يُضاهى في مساعدته الدؤوبة للناس، وكان دائمًا مستعدًا للمساعدة في جز التبن أو السهر على جنازة. مرةً اضطررنا إلى انتشال جثة شاب من رومانيير قفز في البئر بعد إصابته بمرض خطِر، كلاريوس وحده الذي نزل إلى البئر بالحبل، وهو من واجه المتاعب بجرأة. لم يستطع رجلان التعامل مع والدة الشاب

التي كانت تصرخ وتنوح كالحمار المجنون، لكنه كان قادرًا على تهدئتها بمفرده في المطبخ بكلماته اللطيفة والحكيمة، وهذا منع وقوع مصيبة ثانية... والآن، لما حان دورنا لمواجهة المصائب، أصبح يتصرف على نحو غير متوقع. أخشى عليه أحيانًا أن يصبح شريرًا، ولكن عليك أن تعلم أنه لم يعد يعرف الفرق بين الخير والشر. إن الريح تأخذه في كل اتجاه، وهو يسيء فهم الأمور، ويخطئ في كل شيء. فلا تلومه، فهو رجل طيب القلب».

سكتت للحظة وساد هدوء كبير. ثم سألتني: «هل كل شيء جاهز؟»، أجبت بثقة: «نعم سيدتي، كل شيء جاهز، ولا داعي للقلق».

وقف السيد في انتظارنا أمام الباب، ووصلت أنا مع العربة وتبعته السيدة. كان يمسك ذراعه المطوية بالقماش الأحمر، وكانت يده قد تحولت إلى اللون البنفسجي وانتفخت كزهرة مزروعة.

بدل الترحيب انطلق كلاريوس يلقي سيلًا من الشتائم، ثم صرخ بزوجته: «أتريدين موتي، ألا يهمك ألمي الرهيب الذي لا أدري ماذا أفعل به؛ كان من المفترض أن نجهز منذ ساعة، وذاك الآخر هناك...»، لاحظت منها نظرة خفية نحوي. أما هو فالتفت صوب باب البيت، سحبه نحوه بصعوبة، ثم أدار المفتاح مرتين، وأدخله في جيب سترته. ولم يلبث أن دفع السيدة بيده السليمة لتصعد العربة.

كانت السيدة جالسة على المقعد تساعد زوجها على الصعود. وفي أثناء مساعدتي لهما من الخلف، التقت عينانا، وقالت: «يا فتى، هذا هو العرف: إننا نغلق بوابة المزرعة عندما يغادر السيد. ليس خوفًا أو شكًا، بل هي مجرد عادة، اسأل ساتورنين. لقد أعددت لكما السلة، ستتناولان الطعام تحت الأشجار أو في الحظيرة». تدخّل كلاريوس قائلًا: «هكذا هو الأمر، إنها قاعدة لا نقاش فيها. إذا لم يرضَ، فليغيّر المزرعة!»، بعد ذلك، أخذت السيدة اللجام بيدها، وفجأة رأيت منظرًا غير مألوف. لم تعد تلك السيدة الجميلة والقوية والنبيلة وهي تركب حصانها الأصيل الذي ينبض بالحياة، بل أصبحت الآن فيلومين العجوز ذات الوجه المكسور والحمار الذي يسير ببطء عبر العشب الناعم على الطريق.

بعد هذا المشهد، لاحظت أن الأبواب مغلقة بإحكام من الداخل وأن المزرعة أمامي لم تعد ذلك المكان الحي الذي كان. ثم قال ساتورنين لي: «هذا أمر معتاد في كل مرة». فأجبته بتعجب: «لا أجد هذا لائقًا البتّة؛ لم أشهد شيئًا كهذا من قبل! هل يخاف أن نسرقه؟ إنه لا يفهم، ليس هكذا تعاش الحياة!»، وحاول أن يوضح الأمر لي، ثم تراجع وأنهى بالقول: «هيا، لنرَ ما سنتناوله للغداء». وبالطبع، لم تكن هناك حاجة إلى الحديث عن الدرس في ذلك اليوم بسبب غياب الحمار. لا بأس لقد درسنا كثيرًا من الذرة وأحسست أنني قد أنجزت المهمة كما يجب. ثم جلسنا تحت مظلة الحظيرة، أنا وساتورنين، وتفقدت سلة السيدة. لقد جهّزت لنا أشياء طيبة: قطعة لحم مدخّن، وعجة لذيذة، ولترين من نبيذ يتميز بلونه الجميل. من خلال هذا كله، أدركت لماذا يضحك ساتورنين.

بصرف النظر عن الضحك الذي يصيبه من حين إلى آخر فهو لم يكن رجلًا ذا نفع كبير. بدأنا نتناول الطعام وكان يأكل بشهية دون أن يتحدّث كثيرًا. أما أنا فكنت آكل وأنا أفكر في كثير من الأمور، وكان من الغريب رؤية هذا الإغلاق الدقيق للمنزل. سكبت النبيذ لساتورنين من زجاجته وزجاجتي دون أن أدخر من الكمية، لأنني كنت أمتلك خطة. كان يشرب ويتجشأ، قلت لنفسي: «سأجعله يغرّد بما يعرفه من أسرار مثل عصفور صغير». ثم سألته بابتسامة ودية: «يا ترى، هل واجه أصحاب المزرعة أي مشكلات؟»، أجاب: «نعم، لقد واجهوا كثيرًا من المشكلات مؤخرًا». سألته: «ومنذ متى يواجهون هذه المشكلات؟»، أجابني: «منذ وقت طويل، لطالما كانوا يواجهون المشكلات. هذا ليس أمرًا جديدًا». ثم قلت: «ربما هذا هو سبب قسوة السيد». أجاب: «نعم، هكذا هو. لو كنت تعرفه في الماضي... قبل مدة طويلة، أعني... كنت ستقول: ‹إنه أفضل الرجال›، وكان كذلك، ولا يزال كذلك. إنه هو من أعد الحقيبة التي تراها هنا، لقد كان يجهزها عندما كنت مشغولًا بإحضار العربة. كلاريوس كان يعتبره الناس الشخص المناسب لترتيب شؤون العائلة، ومساعدة الناس في حل مشكلاتهم العائلية. فهمت ما أعنيه؟ مثل مشكلات الإخوة في تقسيم الإرث ومشكلات الفتيات، وغيرها». توقّف وظل صامتًا، كان الأمر غريبًا. ثم قام وكان يرتجف قليلًا على ساقيه من شدة الشرب. الآن، من دون ضحكته، أصبح يبدو كأنه تفاحة حزينة جدًا، مجعّدة

بالكامل، تقف بمفردها على غصن شجرة التفاح العاري في قلب الشتاء. كان أكثر حزنًا من كلاريوس وفيلومين، كان الأكثر حزنًا بين الثلاثة. نهض وهو يترنح بذراعيه متأرجحًا ومحاولًا إيجاد توازنه ثم ابتعد. الآن، أصبحت أفهم مشاعره. إن هذا الخادم القديم ربما كان مثلي، وفي النهاية، وجد مكانه كما لو أنه جزء من العائلة، كما لو أنه كان مرتبطًا بهم بالدم واللحم.

لقد كان يشعر بالألم العميق لحال عائلته. ما كان يؤلم الآخرين، كان يؤلمه أيضًا. وعلى الرغم من ذلك، فهو لا شيء؛ إنه ساتورنين. يمكن أن يقولا له: «ساتورنين، انتهى دورك، لم نعد نحتاج إليك بعد الآن، اختفِ»، وسيفعل، إنه لا يشعر بالأهمية. لكنه عندما رأى أنني قد أدفعه إلى البوح بالأسرار تحت تأثير النبيذ، قام ونشر ذراعيه كأنهما جناحا حمامة وانطلق. هكذا هم الرجال الذين أحبهم. هناك بعض الرجال من هذا النوع من حولنا، وهم يعوضوننا عن الآخرين.

VI

طوال فترة ما بعد الظهر، كان ساتورنين بعيدًا عن المنال. كان هناك بعيدًا، أراه في أعماق البستان يحدّق إلى أغصان الأشجار القديمة، وعندما تظاهرت بأنني أنوي الذهاب إليه، ابتعد نحو حقل الصفصاف وهو يمشي بطريقة تشبه سير البط. كنا قد فرزنا الذرة ووزنّاها قبل ذلك، لم نعمل على درسها سوى مدة قصيرة فقط، وكان من المستحيل التفكير في فعل أي شيء آخر.

في هذا الوقت من العام، يتوجّه كل الاهتمام نحو جني المحاصيل لذا ارتقيت إلى مكانٍ عالٍ وجلست أتأمل حقلي محكم التنظيم الذي يعكس ذوق الفنانِ في ترتيبه، ومتانته عندما ينضج الحصاد، وتماثله الكامل، وسعادته بحمل أثقال القش والحبوب، لقد نجحت المهمة بامتياز. نظرت أيضًا إلى منظر الحقل وهو في وسط هذه الأرض القاحلة، فقد بدا لي مثل مجموعة جميلة من الزهور في حقل أجرد. راقبت أيضًا المنزل؛ ذلك المنزل المبني من الحجر والطوب، بجدرانه وقرميده وأبوابه ونوافذه، كلها مرتّبة بإتقان، ومغلقة بإحكام لحماية الداخل من ظلام الليل وضوء النهار، ولم أستطع أن أفهم سبب الإغلاق الصارم وحماية ما داخل البيت من أعيننا وأيدينا.

عندما اقترب المساء، سمعت صوت جرس البغل، ورأيت العربة تعود ببطء عبر طريق لادولوار. لقد كانت ذراع السيد مجبورة بقطع صغيرة من الخشب، تمامًا كما لو كانت موضوعةً في نعش.

«يا فتى»، قالت السيدة، «أنت الآن من سيتولى شؤون المنزل. لقد أصر الطبيب على منعه من إنجاز أي عمل يدويّ في المستقبل القريب». فعلًا، كانت تلك الذراع تبدو كما لو أنها في نعش، وبدل أن تُدفن في حفرة، كان يحملها بكتفه، هذا كل شيء، ولكن في النهاية، إنها كانت ذراعًا ميتة. لقد فهم هذا الواقع أيضًا، فعندما سلم لي الأدوات، قال بلغة أكثر لطفًا: «تفضل يا فتى».

لقد وصلتُ إلى النقطة التي تدفعني بأن أتمسك بهذا الأمر؛ لم تعد توجد أيّ سعادة

لهؤلاء الثلاثة ولا حتى للشخص الآخر الذي كان ينتظرني. كان من المحزن أن أفكر في ذلك، لكن ماذا عساي أن أفعل؟ برأيي، سأحاول قدر ما أستطيع التغلب على هذا المرض الذي يربط أوجاع الآخرين بمعاناتي الشخصية، ولذلك سأواصل العمل في المزرعة حتى يتعافى كلاريوس. وسوف أذهب يومًا ما، في أقرب وقت ممكن، لأطلع ألبين على الأنباء، ثم أعود وأنهي عملي. وعندما يستعيد السيد صحته، نقرر ماذا نفعل.

كما ترون، لم يكن الوضع سعيدًا. وفي تلك الفترة، دخلت فكرة صغيرة في رأسي وقلبته على عقب، فوسوست لي: «أميدي، أيها الأحمق اللطيف، هل نسيت مهمتك الأصلية!». وحاولت أن تبث فيَ الحماس والأمل لإكمال المهمة مثل صياد يطارد أرنب.

ها أنا ذا: في صباح أحد الأيام، دخلت المطبخ لأشرب القهوة. يجب أن أشرح لكم: عادةً عندما أستيقظ في الفجر، أجد أن السيدة فيلومين لا تزال نائمة؛ أنزل برفق، أفتح باب المطبخ والشبابيك، أعدّ الحطب الصغير لإشعال النار وأغادر للعمل. جرت العادة بأن تناديني السيدة في السابعة لتقدّم لي فنجانًا من القهوة الساخنة عربون شكر لي. في ذلك الصباح، دخلت المطبخ، رغم أنها لم تنادِني، ولكنني رغبت في تناول القهوة في الوقت المعتاد. لذلك دخلت المطبخ ولم أجد أحدًا هناك. أدركت شيئًا ما عندما كنت على وشك الجلوس إلى الطاولة. إذ رأيت شيئًا يجعل رأسي يدور كالعجلة المائية دون أن أفهم ماذا يحدث. هناك، على زاوية الطاولة، فنجان صغير من البورسلان الأزرق، فنجان فتيات صغير. وكانت بعض القهوة لا تزال في قاع الفنجان، وأما على صحنه فيتناثر بعض فتات الخبز. أقول لكم، رأسي دار دون أن أفهم شيئًا؛ الأفكار الرئيسة جاءت فيما بعد، لكن في تلك اللحظة، فُتح أمامي باب على شيء واسع جدًا وصادم.

ها أنا ذا أجلس وأنظر إلى الفنجان، أتأمل جماله. نعم، يمكنني أن أقول ذلك، لا زالت اللحظة تبدو واضحة أمامي، كما كانت في ذلك الحين. الفنجان هناك، بمفرده، في زاوية الطاولة، مثل زهرة جميلة. الطاولة فارغة تمامًا وبسيطة، عدا فص من

الثوم في الزاوية الأخرى منها. ينفتح باب القبو وتخرج منه السيدة فيلومين. في يدها صحن فنجان وفوقه قطعة من الخبز. نتبادل الحديث من خلال نظرتينا. نظرتي تصدح بذلك الشعور القوي الذي اندبس فجأة في صدري، وتقول: «ما هذا؟ ماذا يحدث؟»، لكن نظرتها تقول بسرعة وحزن عميق: «لا، لا، لا يوجد شيء. لا شيء مهم». من المدهش حقًّا مدى قدرتها على الكذب في تلك اللحظة!

«أوه، قهوتك، نعم، نسيت»، تقول السيدة فيلومين. «لا مشكلة، أتفهم مشاغلك»، أردّ. لا أكثر من ذلك. أشرب قهوتي الساخنة حتى يكاد يسيل لعابي، وأسرح بأفكاري في النظر إلى الفنجان الأزرق. ثم، تأتي السيدة فيلومين فتحمل الفنجان بهدوء وتأخذه نحو الحوض وتخفيه تحت مئزرها. لا شيء أكثر من ذلك، ولكن عندما أخرج من المنزل، ترن أجراس عيد الفصح في رأسي.

في ذلك اليوم، كنت أعمل على تجهيز الذرة تحت السقيفة، لأن الطقس بدا أنه سيتغير للأسوأ. ورحت أفكر أيضًا في الفنجان ومن قد يكون صاحبه. هل يمكن أن يكون السيد؟ لا، فهو يتناول طعام فطور قويًا في الغالب، مثل البصل البري وسمك الأنشوجة أو الجبن المعلب النتن الذي عندما تشمه تقول: «أه، يا لهذه القذارة!»، إنه لا يبدو الشخص المناسب البتة. أما السيدة فيلومين، فهي قصة أخرى يجب دراستها بعناية. كانت تشرب قهوة وحليبًا مختلطين في وعاء كبير، صحيح، يشبه وعاء حمام القدمين، غير أنها كانت تشرب منه بالفعل. ولكن في هذا الصباح الخاص، كان هناك استثناء. وذلك يعني أنه لا يمكن اعتبارها صاحبة الفنجان الأزرق، لأنني وفيما كنت أشرب قهوتي، أخذت وعاءها وتناولت فطورها أمامي تقريبًا.

حسنًا هذا يبدو نفيًا قاطعًا بالنسبة إلى كليهما. لكن لا يزال هناك ساتورنين. لو قيل لي: «ساتورنين هو من تناول فطوره في الفنجان الأزرق»، لكنت قد أجبت بنكتة قوية مثل: «لا، وماذا بشأن أختك؟»، ثم أصررت بقوة أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحًا، ولكن كان من المعقد جدًّا اتخاذ قرارٍ فوري قبل أن أبدأ في تمحيص التخمينات المتوفرة أمامي، وكانت هذه التخمينات غير مبشّرة بالسعادة، ولكنها حملت بعض الأمل. أحيانًا، كنت أفكر: «لماذا لا يكون هو الشخص المناسب؟ ربما

هو من اختار ذلك الفنجان!»، وفي أحيانٍ أخرى، كنت أقول لنفسي: «يا لحماقتي! لا يعقل أن يكون ساتورنين هو من استخدم الفنجان الأزرق! لو كان الأمر كذلك لكنت أشرب في فنجان من الذهب بالتأكيد!»، لن أطيل عليكم الحديث عن هذا الفنجان الخزفي، لكنه كان أمرًا مهمًا جدًا وهو الذي أحدث فرقًا في نهاية المطاف، ودعونا نفهم بوضوح، لو أنني انتظرت حتى نادتني السيدة فيلومين لتناول القهوة، لكنت قد وصلت إلى المطبخ لأجد الفنجان الأزرق نظيفًا وجاهزًا على الرف كالمعتاد، لكان ذلك سيؤدي إلى إلحاق الحزن والتعاسة بأربعة أشخاص، لا، في الحقيقة خمسة أشخاص ونصف، أو حتى ستة أشخاص ونصف إذا احتسبت نفسي! إذًا هذه هي حقيقة الوضع، هل النصف يثير فضولكم؟ ستفهمون الأمر قريبًا.

جاء ساتورنين يحمل أكياس الغبار فسألته: «أخبرني، ماذا تتناول في الصباح؟»، أضحكه ذلك، فواصلت القول: «أخبرني، هل تشرب قهوة بالحليب في فنجان؟»، واستمر في الضحك حتى النهاية. ثم قال لي: «يا ولدي، هل تتخيلني أشرب قهوة بالحليب! عادتي منذ صغري أن أشرب كأسًا من النبيذ، وأمضغ قليلًا من التبغ فذلك يساعدني على الهضم».

أحمق! كنت أحمقَ! هذا ما جعلني أتردد طوال الصباح! وفي تلك اللحظة، وبسرعة خاطفة، توصلت إلى قرار: الشخص الذي تناول الفطور في الفنجان الأزرق ليس كلاريوس، ولا فيلومين، ولا ساتورنين، ولا أنا. الباب المفتوح أمامي ينفتح أكثر وأكثر... إذًا، يوجد شخص آخر في منزل لادولوار!

وهكذا كان الأمر بعد ذلك! رأيت السيدة فيلومين تعود من القبو بصحنها وقطعة الخبز. لقد نادت اسم أنجيل! ثمّة فتاة هناك. دارت في عقلي أفكار منطقية جدًا! كانت الأمور معقدة جدًا وفيها كثير من التشابك في بعض الأحيان! خاصةً الآن، بعد أن أصبح كل شيء واضحًا، أصبحت النقاط المبهمة أكثر وضوحًا: فهي توضح لنا سبب إغلاق المنزل الكبير وتكتّم ساتورنين طوال الوقت. وأصبح سبب ذلك واضحًا أيضًا، فكما تعلمون جيدًا مثلي، إن أهل هذه المنطقة حساسون جدًا بشأن كرامتهم وسمعتهم. عندما تهرب فتاة من منزلها، خاصةً مع رجل سافل، تصبح

محط اهتمام الناس ويبدؤون بالحديث والتكهن. يقولون: «سمعتم عن فتاة باربارو، أليس كذلك؟». عندما تذهب بلا رجعة، يبقى الحزن في نفوس أهلها، ولكن لا أحد في القرية يراها، لكن عندما تعود! بالطبع، هي نفس الفتاة، خاصةً بالنسبة إلى الأم، ودائمًا ما يكون الحنان على وجنتي الأم باديًا، لكن... لكن الناس يقولون: «باربارو هذا، نساء بيته يسيطرن عليه كما يشئن. تعرفون ماذا فعلت ابنته...»، وهكذا، يأخذ هؤلاء الأهل الفتاة عند عودتها، يمسكون بذراعها، ويضربونها، ويصفعونها، وبضربة قوية في ردفيها، يرمونها في غرفة مغلقة. ثم يقفون أمام الأقفال وهم يشعرون بالتوتر والحيرة.

هكذا هي الحال. لم تكن أول مرة أشهد مثل هذا الأمر. وأعتقد أنكم شهدتموه أيضًا؟ لقد سمعت عن حادث في منطقة ماني، في مزرعة إنشو، حيث حبس سيغيراند أخته بنفس الطريقة. لكنه مات فجأة في أثناء عمله، ورغم دفنه بشكل لائق، لم يكن لديه أقارب معروفون، باستثناء كليريت سيغيراند، الفتاة التي قيل إنها فرت برداء جميل في عمر العشرينيات، لكنهم لم يعلموا أنها كانت محجوزة في الغرفة الخلفية. ومن ثم، أغلقوا المنزل ومضوا في حياتهم. هل تعرفون منطقة إنشو؟ لا؟ حسنًا: إنها تقع على جانب جبلي باتجاه بانون، وتختبئ في مكان ما بين أشجار البلوط والسرو. لن تعرفوا أنها مخبأة هناك إلا لو زرتموها من قبل.

بعد عامين، أو بالأحرى بعد نحو ثلاثة أعوام، جاء أحد أهالي آكس يبحث عن أرض ليستأجرها للصيد في فصل الخريف. استقر هناك في بيت صغير بصحبة شخصين من بلدة بين، أحضر معه الطعام وامرأتين سيئتي السمعة ليعوضوا زوجته. هكذا هو الصيد والمرح لهؤلاء السادة. كانوا يحتفلون طوال الوقت، وفي وسط إحدى الليالي، يصعد الجميع الدرج وهم سكارى وفي حالة استثارة، يضحكون ويمرحون. ولكن عندما فتحوا باب الغرفة، سقطت كليريت سيغيراند ممددة وجافة على الأرض كعظم مفكك. كانت قد تعلقت بأظافرها في الباب، ولكنها ماتت جوعًا هناك. أصيب اثنان منهما بأوجاع في البطن لمدة ستة أشهر، والثالث انهار عصبيًا وبدأ بالبكاء.

قد يكون ذلك من سخرية الأقدار، لكن المؤسف هو أن الفتاة كانت مرتبطة براعٍ شاب من سومان كان يحبها بشغف وجنون. لما أتته الأخبار أعماه الغضب، تركُه لحبيبته العزيزة تموت على مسافة قريبة منه دون درايته، دفع به إلى الانتحار. النساء، كما تعلمون، يجعلن الحياة أكثر تعقيدًا.

عودةً إلى موضوعنا، إليكم الأخبار الكبيرة. الجو أصبح جميلًا جدًا وصار منزل لادولوار أكثر لطفًا عندما علمت أن في داخله أنجيل الرائعة. لقد أردت أن أصرخ بكلماتي فوق التل لكي يتخلى صديقي الذي كان يطعم الخنازير في مزرعة إسمينارد عن حزنه.

استمرّت تلك المشاعر طوال الصباح. في أثناء وجبة الغداء، كنت أمضغ الطعام في صمت، وبينما كان كلاريوس يشكو من آلام في ذراعه، وكان ساتورنين يهلك من الضحك تحت منديله. قضيت بقية فترة ما بعد الغداء في العبث والضحك وأنا أقول لنفسي: «أيها البؤس القديم، اذهب، أيها البؤس القديم !»

كان نهاري يسير جيدًا، لكن الليل يبعث في الأمور أهميةً أكبر. كنت أتقلب في سريري مثل الحمم عندما أستيقظ. في تلك الليلة، تعبت من البحث واللف والدوران خلسةً حول المنزل من المطبخ إلى العلية بقدميَ العاريتين، وبذراعيَ الممدودتين في الظلام مثل الصليب. كان الصمت يسود كل مكان حتى مع وجود الفئران. ومع دخولي إلى غرفتي، ضربني النوم مثل صفعة قوية.

على الرغم من تعبي، كانت حالة نومي هشّة مثل تهشّم الزجاج. أفاقني ضجيج خفيف جدًا، كان يتغلغل في هيكل المنزل القديم، لكن هذا الضجيج لم يكن مألوفًا، أو ربما كان التفكير في كل هذه الأمور هو ما جعلني أكثر حساسية. في النهاية، لم يكن لدي خيار سوى الاستيقاظ. كان الصوت يبدو مثل نحيب طفل رضيع.

VII

لو سُئلت في اليوم الذي وجدت فيه الفنجان: «كم تراهن على أنك ستظفر بما أتيت لأجله؟»، لكنت مستعدًا للمراهنة بقوة، حتى بمئة فرنك. لكن في الأيام التي تلت، شعرت بأنني أقل فخرًا، وأحيانًا بدأت أفكر في أن حظي قد يضيع. كان من الجميل أن أقول: «بما أن الفنجان قد أستخدم، فإذًا أنجيل هنا». نعم، ولكن أين بالضبط؟ وما الفائدة من ذلك؟ وهل كانت تلك التوقعات مؤكدة؟ إننا دومًا نجزم بالأمور، ولكن في النهاية ما زلنا نعيش بالتخمينات. ما يحبط آمالي أكثر هو أن الحال لم يتغير في لادولوار، إنها لا تزال كما كانت. لا مكان لحياةٍ جديدة غير حياة كلاريوس وساتورنين والسيدة فيلومين وأنا. هنا، لا تسمع أصواتًا غير أصواتنا الأربعة. أحيانًا أفكر في ذلك الأنين الخافت الذي سمعته في الليل، ولكن لم أستطع التوصل إلى أي ارتباط بينه وبين كل ما يحدث. لم يبق سوى الفنجان الأزرق برواسب القهوة وقطعة الخبز على الصحن. ولكن حتى بالنسبة إلى ذلك، لم يعد يتحرك الفنجان من مكانه وظلّ نظيفًا منذ ذلك الحين.

ثم، فجأةً، بدأ الجو يتغيّر ومالت الريح إلى الجنوب. كل يوم، كانت تأتي نسمات طويلة من الرياح الدافئة التي تحمل الغيوم. كما ظهرت غيوم سوداء من ناحية فالونسول، وهذا يعني أن المطر قادم. عندما نتوقف عن العمل، نسمع من بعيد صوت عربات ونداءات، وهذا يشير إلى أن حركة الهواء تتجه من الجنوب إلى الشمال؛ ما ينبئ بأمطار غزيرة وطويلة قادمة.

في إحدى الليالي، شبّت عاصفة قوية كعمودٍ من الغبار في وادي لاس بالقرب من مدينة ميزيل. كانت السماء مختلطة بالبرق والرعد. وكنت مستلقيًا في المنزل أسمع دوي الرعد من فوق، كأن العاصفة تحطّم الأرض بقوة. نهضت لإغلاق الشباك وحملته بيدي وهو يتراقص كأجنحة الطيور. وفيما كنت أبحث عن المزلاج، ضربت صاعقة كبيرة، ورأيت الغيوم تتجه نحونا.

في اليوم التالي، ارتفعت مياه نهر دورانس فأغرقت المرج واغرقت أيضًا حقل البتوليات. كنت أسمع موج النهر وهو يصطدم بالأشجار. بدأ الطقس يتغير، وكانت

الأمطار تقترب. قلت لساتورنين إننا يجب أن نستغل الوقت وننقل المحصول إلى المخزن. فخزنّا سبعًا وعشرين كيسًا. بعدما انتهيت من ذلك، أجريت جولة تفقدية وربطت العربة تحت المظلة لتكون بمأمن.

في اليوم التالي، بدأت الأمطار تهطل بالقرب من مدينة نيوزيليس بعد أن مرت على أوراسيون. كان الجو حارًا جدًا كأنك أمام فرن. كنا نحاول التنفس بصعوبة من شدة الحرارة. تسببت الأمطار في ظهور سحابة كبيرة تغطي التلة بالظلام وكان هناك شريط أسود يتدلى من السماء ويتحرك بثقله فوق الحقول. هطلت قطرات كبيرة بيضاء مثل أزيز النحل. ورغم رغبتنا في الأمطار، زادت الحرارة.

بعد يومين، بدأت السماء تتكشف قليلًا كأنها تتجمل بأشعة الشمس. الطقس السيئ رحل بعيدًا إلى جبل لور والمناطق العالية، وكان الرعد يدوي هناك بعيدًا عنا.

بعد ظهر يومٍ من تلك الأيام، قلت لنفسي إنني لن أكون بلا نفع مثل ساتورنين وقررت صعود التل لأحضر حزمةً من الأعواد البرية التي نمنع بها انسداد الصنبور بمخلفات الحبوب.

بالكاد تجاوزتُ الحافة الأولى للأرض عندما شعرت بذلك البرد القارس على ظهري. رفعت رأسي فرأيت خمس كتل سحابية ضخمة في السماء، تمثل الجبهة الأمامية للعاصفة. قد يكون لها بعض الشكل البشري، ولكنها تنتهي بالحواشي المظلمة، تبدو كالحبر المتدفق بلا شكل، مصحوبة بصوت رعد وبرق مخيف. أسرعت على المنحدر وفجأة سمعت صوت المطر الغزير يلحق بي. حاولت الجري إلى الاحتماء منه، إلا أنني أجهدت بسرعة، واضطررت للاحتماء في المخزن. لو تمكنت من الرجوع إلى المنزل ودخلت من الباب، لتدفقت سيول المياه إلى الداخل ولربما كنا جميعًا في خطر الغرق. الجميع، هل تعون الأمر؟ وقفت أرى من المخزن، كانت شجرة الحور في المزرعة ترتجف بقوة من شدّ الرياح، ثم تلتوي وتنطلق بسرعة نحو السماء. كان بعض قرميد المخزن ينقلع ويحلق مع الهواء مثل الطيور. وتساقطت حبات برد أكبر من بيض الدجاج. في الوقت نفسه، هبت أيضًا عاصفة من الأوراق؛ حيث حلقت في الهواء مئات الكيلوغرامات من أوراق البلوط الممزقة من أشجار الهضبة،

وتطايرت أغصان كاملة لمسافة أبعد من كيلومترين. كانت البروق تنفجر من الأرض كأنها نافورات. في مقابل المبنى، في الهضبة، هناك شق ضيق يخرج إلى الطريق عند مسافة عشرين مترًا من المنزل. فجأة، من ذلك الجانب، دوى صوت الرعد كأنه زلزال، فتحسست قلبي. يا إلهي، ماذا لو كانت العاصفة ستهبط هناك! لا أستطيع أن أصف لكم مدى تخوفي، فلن تصدقوا. ثمة شيء واحد فقط بوسعه أن يعطيكم فكرة عن ذلك: عندما أعدنا ترتيب الطريق في تلك المنطقة، اضطررنا إلى حفر خنادق في التربة بعمق ثلاثة أمتار للعثور على الأرضية الحجرية التي كانت تنام تحت الأرض كثعبان ميت. وجدنا كل شيء هناك: ركام، صخور، أحجار، تراب، ومياه متدفقة.

وفجأة، وجدت نفسي مسحوقًا تحت ثقل سقف المخزن، ثم تأتي بقية الأحداث دون أن أشعر، بزخم من الأعصاب. لا أتذكر سوى شيئين: أولًا، أنني كنت في العراء وسط زخات المطر التي تضرب ظهري وجوانبي بشدة، وحبات البرد التي تحتك بخدي. بعدها، ظهر أمامي سيل متجه نحوي وهو يحمل حجرًا كبيرًا يتدحرج كالدّف على بطنه. ومن ثم يأتي صوت الرعد، مهيبًا كالعدالة، فيضعني على أهبة الاستعداد، ثم يليه صمت لطيف ورقيق.

لا يزال المطر ينهمر بقوة لكن دون عجلة. هناك نهران من الوحل يجريان على كلا جانبي النهر. ظل الحجر الكبير الذي دفعه السيل على بعد مترين مني عالقًا في جانب العربة، يفصل السيل إلى نصفين فيجري من كلا جانبيه بصوت ناعم مثل الحرير. يبدو أن الشخص الذي دفع العربة بين شجرتي تين قديمتين احتملتا صدمة سيول نهر لادولوار كان أنا.

ولج الليل بسرعة. كانوا جميعًا في المطبخ، دون أن يتكلم أحد فيهم. ساتورنين لم يبتسم، وكلاريوس كان يمسك ذراعه كالعادة. السيدة فيلومين، التي تملك إصرارًا قويًا، ألصقت وجهها بالزجاج لترى ما يحدث في الخارج. عندما دخلت، التفتت نحوي. وظهر انعكاس نار الموقد في عينيها. «ما هذه الفوضى التي تحصل في الخارج؟»، قلت لأعلن عن وجودي. «نعم»، أجابت السيدة. وبقينا جميعًا في الظلام بعض الوقت دون قول كلمة. «هلا ذهبتِ لتري ما حدث؟» سأل كلاريوس. «أنا؟»،

أجبثه. ردّ عليّ: «كلا، لم أقصدك، بل السيدة فيلومين». تركتِ السيدة فيلومين موقعها على النافذة وقالت: «سأذهب لأتأكد». قلت لها: «إذا كنت ستخرجين، احذري من الفروع المكسورة في الفناء». لم يكن هناك رد، سمعت صوت صنادلها وبعد ذلك سمعت باب القبو يُفتح والسيدة فيلومين تنزل دون أن تشعل الضوء، تتلمّس طريقها بحذر الظلام.

بعد لحظات، ارتفع صوتها مناديًا: «كلاريوس، تعال قليلًا». فانصرف السيد وأغلق الباب خلفه. بقينا أنا وساتورنين فقط؛ كان البرق يلمع من خلال النافذة لكنه انطفأ سريعًا وامتلأ المطبخ بالظلام. إذًا، ها هو ذا هنا، معي، خاطبته بعفوية، ودون أي نية مخادعة، أقسم لكم، كنت فقط أرغب في أن أبعث بعض الحيوية في هذه الليلة الطويلة جدًا، قلت: «لا بدّ أن الماء قد نزل إلى القبو». سمعت الرجل الكبير بجواري يضحك بضحك كأنه بكاء ثم يجيبني بسرعة: «لا، يا رفيق، معي لا تحاول». لا بدّ أنه كان يفكر فيم كنت أفكر. لذلك، لأشعر بالاطمئنان قليلًا، وللتفكير بأمور إيجابية، فتحت الباب وخرجت إلى زخات المطر المنهمرة في الخارج.

ما زلت أتذكر أول ليلة عندما رأيتها في لادولاوار. نعم، المرة الأولى، تلك التي تلهم خيال ألبين: أنجيل، الفتاة ذات الحركات السريعة، فارسة الخيول، اللوزة الجميلة من لادولوار. بدا لي أنها قد تغيرت كثيرًا. عندما يسقط التفاح من الشجرة، تنتشر فيه الديدان ويتعفن. على أي حال، كنت قد كونت لنفسي فكرة مختلفة عنها وربما كانت، في وقت ما، تشبه تلك الفكرة. ومع ذلك، كان لديها حركاتها الخاصة. سأحكي لكم ماذا وقع.

بعد بضعة أيام كان الجو قد تحسن في الخارج، أصبحت الأمطار تنزل مثل قماش رقيق ولم يعد تيار النهر يجاور لادولوار. وفيما كنت أمشي خلف المنزل، رأيت بسرعة شريطًا من الضوء الذهبي ينساب من الجدار، باب مفتوح قليلًا ووراءه وميض من الضوء. توجب عليّ الحذر والحرص على السير بصمت على الحصى. وكان عليّ أن أزيل قبعتي بسبب زخات المطر التي كانت تدق على سطحها مثل الطبول. وفي تلك اللحظة رأيتهم: كلاريوس كان يحمل المصباح. «تعالي»، قالت

السيدة فيلومين، وهي تميل بوجهها نحو درج القبو.

سمعتُ صوت خطواتٍ خفيفة. كان يبدو لي أن صوت قلبي يدوي كالرعد مسافة كيلومترات من حولي. «انتظري يا أمي»، قال الصوت، صوتها الذي قطع أنفاسي، «أخشى أن يستيقظ». دوى صوت كلاريوس الخشن: «ما هذا بحق الرب!»، همست السيدة فيلومين: «ششش...»، فأغلق السيد فمه.

ظهرت السيدة فيلومين في فجوة الضوء الذهبية وهي تحمل رضيعًا صغيرًا على ذراعها الناعمة كالسلة: كان مثل السيد المسيح! دخل نسيم بارد من الباب المفتوح على الخارج. بدا على وجه الفتاة قلق من هذا النسيم البارد، ثم غطت رأس الطفل الصغير الخالي من الشعر بيدها الناعمة كالورقة.

VIII

منذ تلك الليلة، راحت ثلاث صور تتراقص في ذهني، حية وواقعية، حتى أصبحت أراها حتى عندما يتجه نظري نحو الأشجار والعشب والتفاح أو ظهر التلال. أرى ألبين، وأرى ظل موطنه الجبلي الذي يلتف حوله. ألاحظ جماعته من عازفي الهارمونيكا الذين يرافقونه، أراه يرتدي حقيبتة التي يحملها على كتفه بمقبضه القوي كأنها قرينته. ثم أرى أنجيل، تبدو رائعة! وفي النهاية، أرى الصغير. أرى هؤلاء جميعًا.

اقتربث من السيدة فيلومين قبل تناول الشوربة وقلت لها: «يا سيدتي، انتهى الحصاد وحصدنا كل شيء وهو جاهز للبيع. تبقت أربعة أو خمسة أيام زائدة، دعيها لي؛ لديّ عائلة وأود أن ألقي عليهم تحيةً بسيطة. لا تقلقي، فهذه ليست كذبة، بل عين الحقيقة. وأيضًا، سأترك معك كل أجري، فأنا لست بحاجة إلى المال الآن، سأعود وأستلمه لاحقًا. وقبل أن أذهب، أنصحكِ ألا تبيعي أي شيء قبل أن أعود، لأنه لما يتعلق الأمر بالبيع، ثمة كثير من العوامل المهمة. لذلك، سأتولى تحديد الأسعار بنفسي».

سألتني عن أهلي، فأخبرتها أنهم في بيرويس، وعلى الفور، رأيت تعابير الدهشة على وجهها. قالت لي: «إذا كان الأمر كذلك، فاستمتع بوقتك في بيرويس الجميلة واستغله أحسن استغلال. ولكن أرجو منك العودة إلى هنا عندما تنتهي إجازتك. منذ أن جئتَ هنا، شعرت أن حياتي قد تجددت مرة أخرى».

شكرتها على كرمها ووفائها، وقلت لها: «طبعًا، سأعود إلى هنا. إنني ممتن جدًا لحسن ضيافتك. سأغادر صباح الغد». وفي الصباح التالي، عندما استيقظت، وجدت أنها قد أعدت لي وجبة من اللحم المقدد والخبز وزجاجة نبيذ لتكون زادًا لي في الطريق، وربطث كل ذلك داخل منديل كبير.

نظرت إلى عينيها، قلت لها: «وداعًا»، وفهمث أنني قصدت «إلى اللقاء»، وليس وداعًا نهائيًا، فابتسمت. إنها امرأة طيبة. أمثال هذه المرأة يصنعن خدمًا جيدين،

ويصنعن مزارع مزدهرة كذلك، عندما لا تظهر المشكلات.

لم أحمل معي المال لأتجنّب إغراء الشراب. قررت الذهاب عبر طريق لابريلان بدلًا من طريق ليمي، لأنه كان مظللًا وسهلًا على الأقدام. عند منعطف طريق فوركالكييه، التقيت مجموعة كازيمير الذين كانوا عائدين من نيوزيلز بعد انتهاء عقد عملهم هناك، وهذه المناسبات تستحق الاحتفال. بعد الغداء، قضيت وقتًا في كافيه دو كوميرس ولم أفارقهم حتّى الخامسة مساءً. كان أدولف نائمًا تحت الطاولة مثل الخنزير، ونام اثنان آخران على الكنبة. كان بينهم شاب يبكي على ثلاثين فرنكًا أنفقها على الشراب، أما كازيمير فكان منغمسًا في لعبة بوكر مع رجل من ورشة الإصلاح الموجودة بجوار مضخة الوقود.

حسنًا صنعتُ لما تركت المال، إنه مؤلم ما يفعله بك الكحول! صحيح أنني شعرت بقليل من الحرقة في فمي لكنّ ذهني كان صافيًا. بل، بدا لي أن معنوياتي في السماء. كنت أسير كما يسير رؤساء البلديات. ومع ذلك، بدأت أشعر بالتعب في ركبتي بعد أن عبرت مرتفع لور، ووصلت إلى بيرويس في التاسعة مساءً. من القرية إلى بيت إسمينارد، كانت هناك مسافة نحو ثلاثة كيلومترات تمر بطريقٍ رديئة.

كان الجميع نيامًا عندما وصلت. لما وضعت قدمي على الحقل، ركضت الكلبة نحوي ونبحت قليلًا فقلت لها: «هيا، ديان، ألا تعرفين الأصدقاء؟» بعد أن سمعت صوتي، هدأت وراحت تقفز بسعادة. حسنًا، لا يبدو أنها قد نسيتني بعد كل شيء. كانت ديان وحيدة، لذلك افترضت أن الرجل الكبير كان في مكان آخر ليحرس الأغنام. تقدمت قليلًا فرأيت ضوءًا أحمر صغيرًا من منزل إسمينارد وهو يتلألأ على مرتفع غانوجوبي. آه، إنه هو، هذا الرجل العجيب، لا يزال كما عهده السابق، لا يكترث لزوجته. لو لم يكن لألبين مسؤولية، لكان الأمر أسهل. فالرجال بهذه الوسامة يدعون إلى الحذر عادةً.

أما إسمينارد، فهو رجل لا يبالي بالأمور الصغيرة: كان يصفّر لكلبته، ويضيء فانوسه، ويحشي أربعةً من غلايينه لتكون جاهزة تحت تصرف يده، ثم ينطلق لرعاية الأغنام. وحينها فليأتِ ما يأتي، هو لا يهتم، كأنه غير معني، كأنه خشب.

توجهت إلى نافذة الغرفة التي أعرفها وناديت: «هيا، كلوريندا!»، ظهرت بقميصها وقالت: «أميدي، هل أنت هنا؟ لقد تعرفت على صوتك. انتظر، دعني أرتدي جواربي، سأفتح لك الباب». دخلت إلى البيت واستلقيت في سريرها بسرور، لا أخفي عنكم هذا. كان السرير دافئًا ولطيفًا. كانت هذه التجربة غريبة، النوم على فراش دافئ بحرارة جسد شخص آخر وشعوري بساقيها وهي تجلس بجواري. حقًا، المرأة شيء مذهل!

في الصباح، بينما كانت تمشط شعرها، سألتني: «إذًا، أنت الذي أرسلت إلينا هذا الرجل؟»، أجبتها: «نعم، إنه رفيقي. هل أوفى بالعمل؟»، قالت: «تعال وانظر». قمت من السرير، ومن وراء الستار رأيت ألبين يطعم الخنازير. كان كما هو دائمًا: ضخمًا وأسمر. بدا أنه أسمر رغم أنه لطالما كان أشقرَ حليق اللحية. وفهمت أن ذلك يرجع إلى حزنه. قالت: «مشكلته، هو أنه لا يتكلم ولا يوليني اهتمامًا كما لو أنني حجر أو سحابة. يمر عليك دون أن يفصح بشيء، ثم إن لديه تقويمًا يواظب عليه ويعمل على شطب كل يوم يمر من على التقويم، الواحد تلو الآخر».

كنت أقف أمامه بينما هو عائد من المراعي. نظر إلي، ثم اقترب مني بخطوات واسعة وسألني: «ما الأمر؟»، ابتسمت، وفاجأني بمبادلة الابتسامة. قلت له: «أنجيل، فتاتك، إنها موجودة في منزل لادولوار. هذا هو الأمر يا صديقي القديم». ظل هادئًا لوهلة، ثم رأيت الألم يتلاشى عنه وأشرق النور بوضوح في عينيه كما كان في السابق، ألبين من بومين. آه، لو رأته أنجيل وهو بهذه الحالة! سألني: «هل تحدثت معها؟»، اختليت به بعيدًا عن أعين الناس، وجلسنا تحت أشجار التفاح في حقل هادئ. شرحت له الموقف، ليس كل التفاصيل، ولكن الصعوبات التي واجهتها واكتشافاتي الأخيرة. قال: «إذًا، هي محتجزة هناك طوال النهار والليل، معزولة تمامًا. إنّ أبويها لوغدان». أجبت: «ليس بالضرورة أنهما وغدان، إلا أنهما لم يعتادَا مواجهة الصعوبات، فيستخدمان علاجًا بسيطًا كما لو كانا يعالجانها بالوصفات الطبية». ثم أضفت قائلًا: «ثمة شيء آخر احتفظت به للنهاية، ليس لأنه الأفضل، فالأفضل أقوله بدايةً، بل لأنه أصعب ما يقال. لقد عادت بالطبع، وهذا أمر مهم، لكن يبدو أن لديها تجارب مؤلمة سابقة، خاصة مع لويس...»، قاطعني وسأل بترقب: «وماذا بشأن

ذلك؟»، أجبته: «بشأن ذلك، لديها طفل صغير».

كان يقف أمامي رجل جاء مباشرةً من مكان يسمى بومين، حيث الأشجار جميلة والثلج ناصع لا يعرف الشر. جاء بوضوح وصراحة، بلا كذب أو نيّات خفية، مثل فتى صالح. قال: «لا يهم». وعلى الرغم من ذلك، عرفت أنه يستعد للمغادرة، وشعرت أنه سيرحل فورًا نحو لادولوار دون تناول وجبة العشاء. لكنّ هذا الأمر لم يكن مجديًا تمامًا، إذ أحببت أن أتنفس قليلًا وأودّع كلوريند قبل المغادرة، فأنا لم أرها منذ ستة أشهر. وكانت ذكية جدًا في التعامل مع مثل هذه الأمور. بعد العشاء، أومأت له بحركة رأس صغيرة، ثم صعدنا إلى غرفته لنتحدث. شعرت ببعض التوتر أمام ألبين، وحاولت الغناء وأنا أتظاهر بالهدوء، فيما كنت أفكر في ما سأقوله له لكي يفهمني، وماذا سيفكر فيّ وهو يراني بهذه الحالة. في النهاية، قررت أن أطلب منه أن يتغاضى عن أمر السفر ويرتاح قليلًا. لكنه ليس ساذجًا. ردّ عليّ بأنه سيرتاح قليلًا، ولكن فقط لأجلي. ابتسم وضحك قليلًا. كانت ردة فعله جميلة وسعدت برؤية مزاجه اللطيف.

بالطبع، لم أضطجع مع كلوريند، كان ذلك مجرد تعبير مجازي. بعد مدة قضيتها مستلقيًا على السرير، واضعًا ذراعيّ المتقاطعتين تحت رأسي، قلت أخيرًا: «ما هذا الصوت يا كلوريند؟»، كان صوتًا ينساب عبر الرياح، ولكنه كان جميلًا وعذبًا، مثل موسيقى رائعة تعزفها الرياح من خلال الأشياء الجميلة في الأرض والأشجار. كنت أشمّ رائحة حقول الذرة والأعشاب الطويلة والأوراق الكبيرة، ورائحة الصمغ والفطر والطحلب الكثيف، ورائحة التفاح المجفف. «هذا الصوت»، قالت كلوريند، «يصدر من الرجل هناك بالأسفل، فهو يسلي نفسه بعزف موسيقاه. كل يوم يفعل ذلك، إنه صوت جميل جدًا». نعم، كان رائعًا جدًا. كأنه يعصرك بقوة في منتصف البطن، ذلك هو الشعور الذي تجلبه الحقيقة عندما تقال لك بوضوح وجهًا لوجه.

عند الساعة السادسة، قررت أن أنطلق مع صديقي ألبين. بدأت رحلتنا على الطريق المحاط بأشجار النخيل ومرورًا بالقرية، ومن ثم عبرنا طريق دورانس وجبل غانوجوبي. وعندما غطى الليل سماء المكان، رأينا خلفنا مصباح إسمينارد يضيء

في قمة التلة. كنا نسير مستمتعين بالطريق.

IX

وصلنا إلى المنطقة في الصباح التالي، قرابة الساعة الخامسة. فهمت جيدًا أنه لم تكن هناك أيّ نية للسماح بدخول ألبين إلى لادولوار، وكما هو متوقع، فقد خططنا مسبقًا لما سيحدث في أثناء مشينا. قررنا الصعود إلى كوخ حجري دائري ومدبب في وادي فيلديو، كان الكوخ مضاءً بالشمس ومحاطًا بالزعتر والإكليل وسط حقل أخضر جميل. وكان يُسمى قمة السُكّر أو برج بيير لو براف، وكان أحيانًا يُستخدم للرعي.

جهزنا المكان لألبين وعلقنا حقائبنا ورتبنا الفراش، نظفنا الموقد وأشعلنا شعلة كبيرة من خشب الصنوبر للترحيب. كانت الرائحة العطرية للصمغ والجمر تملأ المكان، وأضفت رونقًا إلى الصباح الجميل الذي تسللت فيه أصوات الطيور من كل الجوانب. كان مكانًا رائعًا! ثم سألني ألبين عن مكان لادولوار، فأشرت بإصبعي نحو الحظيرة الصغيرة التي يلفها الضباب. نظر مدة طويلة وأظهر اهتمامه، ثم قال بحزن: «إذًا، هي مسجونة هناك، لا تتنفس الهواء النقي أو تشعر بالرياح على ساقيها؟ أليس ذلك محزنًا...»

شوينا النقانق على الفحم واضطررت إلى استخراج بعضها الذي سقط في وسط النار بأصابعي. تناولنا الغداء تحت أشعة الشمس في الهواء الطلق، وقضينا هذا اليوم معًا. كان لديه وقت كافٍ ليبقى هناك وحيدًا حتى تكتمل المسألة.

في فترة ما بعد الظهر، عندما تلاشى الضباب، بدأنا برؤية المناظر الطبيعية ونهر دورانس الذي يلتهم الأراضي بطريقة مدمرة. هناك كانت لادولوار؛ في أسفل الوادي. كنا نرى ماريغرات، المدينة ذات الأسقف الجديدة المزينة والمزخرفة، وهي تشبه الفتاة الغنية التي تتوجه إلى السوق بكل أناقتها. لم يكن هناك أي أتربة أو قش، وكان المكان خاليًا؛ فقط نحن الاثنان، أنا وألبين، على هذه الأرض، نرقب لادولوار ولوزها.

قال ألبين: «ما نحتاج إليه هو معرفة مكانها وكيف تعيش وإن كانت بخير ولا ينقصها شيء». تذكرت الفنجان الأزرق وقلت: «بالتأكيد ليس لديها نقص في أي

شيء». أضاف قائلًا: «إذًا يجب أن نتحدّث إليها لو استطعنا». وتابع: «هذه المرة قد قررت عدم البقاء في ظلال الصفصاف مثل ذلك اليوم لما أخذني لويس معه، لأن ذلك سيسبب كارثة للجميع».

عندما حل الليل قلت له: «اعزف موسيقاك قليلًا، مثلما فعلت هناك في بيرويس ...» قال: «لا». بمظهره العادي الذي يوحي: «لا يستحق الأمر العناء ...»، وأكلنا النقانق في العشاء. استيقظ فجأةً في الليل وسألني: «هل أنت نائم؟» قلت: «لا»؛ لم أكن نائمًا. كنت مشغولًا بالتفكير في ما ينبغي فعله لإعادة أنجيل إليه، وهذا كان السبب في تبدّد رغبتي في النوم. واستمر قائلًا: «يجب أن نخبرها أنني أنا، قبل مدة طويلة... قبل الشخص الآخر... أنا من كنت تحت ظلال الصفصاف. هذا هو الأمر».

عندما طلعت الشمس، انطلقت في مهمتي. مشيت حتى وصلت إلى لادولوار. «أهاً، ها هو ذا رجلنا»، قالت السيدة فيلومين، «هيا يا ولدي، ارتشف قهوتك وارتح». هكذا كانت طيبة هذه المرأة. وفي أثناء ارتشافي القهوة وأنا أتحسس حرارتها بين أصابعي، دخل كلاريوس وتوقعت من وجهه المتجهم أن الأمور ستسوء. تحدّث دون أن يلتفت إليّ: «هل انتهى السيد؟ إذا انتهى، فليس عليه أن يتردد في الرحيل. إذا كان بحاجة إلى مواصلة تجواله، يمكننا أن نقرضه الحصان ونعطيه بعض مال الجيب». قلت له: «أتقصدني بهذا يا صاحبي؟»، فردّ: «هل اعتقدت أن هذا الوضع سيستمر؟ لسنا ندفع لك لتتصرف كما تريد. عندما تحتاج إلى طلب شيء ما، عليك أن تطلبه مني، هكذا طبيعتي. ثمة سيد واحد هنا، وهو أنا. لا تستطيع أن تطلب من النساء أخذ إجازة». كانت السيدة فيلومين تقف هادئة في ردائها، تحمل طبقًا في يدها، وكان الطبق يرتجف. قلت: «لا تغضب يا صاحبي، لقد ظننت أن...» كان يتحرك في جميع أنحاء المطبخ ويحمل ذراعه بالحزام الأحمر، ثم اقترب مني وقال: «ماذا ظننت؟ أخبرني، ماذا ظننت؟ ماذا قالوا لك؟ ماذا ظننت؟ أتظن أن النساء هنّ من يقررن الأمور هنا؟ أهكذا الأمر؟ سأظهر لك أن النساء هنا لسن من يقدن الأمور، أنا هو السيد: كلاريوس باربارو، وليس غيري. إنني أفعل ما أشاء، أفهمت؟». كنت متضايقًا جدًا من كل هذا الكلام، فغادرت المكان. عندما أغلقت الباب ورائي، سمعت صوت السيدة فيلومين الرقيق، ورغم أنه كان يرتجف، إلا أنها دافعت عني بعناد. كانت

تقول: «كلاريوس، لم أعد أعرفك؛ أنت لم تعد نفسك، عقلك مشوش، أحكامك خاطئة، كلاريوس!».

هذا الرجل، الذي ترون، كان لديه جرح عميق يأكله من الداخل في أماكن لا يستطيع أن يداويها بمفرده. في أثناء وجودي في بيرويس، كان يتعامل مع الجميع ببرود. ساتورنين أيضًا، المسكين كان يمشي بجانب المحراث متسكعًا بين أجناب التربة الخشنة. كان لديه نصيبه الكامل من الكدمات: ومع ذلك، ظل يدفع البغل على أي حال.

كنت مع ساتورنين فوق قطعة أرضية تنحني مثل حافة الفأس، وكانت تختبئ في زواياها شجيرات الصفصاف. أما أنا فجلست تحت ظل أوراق الشجر، أحرر البغل الذي كان يسيل بالعرق من حمل المحراث وأقول لساتورنين: «استرح يا صديقي القديم». كان هناك هواء جبلي يهب عبر دورانس، نقي وحاد مثل السكين. ساتورنين، وهذا ما أدركته على الفور، خلع سترته ووضعها على البغل. «سيصاب بالبرد»، قال بخجل. لم أتكلم للحظات، ثم قلت: «وأنت، أتصاب بالبرد أحيانًا؟» ابتسم ابتسامة بسيطة. «أنا»، قال، «إذا جلست هنا، مقابل هذا التيار الهوائي الجميل، فإنني أفعل ذلك بمحض إرادتي، أمًا الحيوان، فهو غبي تمامًا دون إرادة أمام المشكلة. إذا لم يكن منا من يدافع عنه، فمن سيفعل؟»، ثم بعد أن تحرك برعشة طويلة، قال مرة أخرى، ربما لكي أوافقه الرأي: «يا لحماقة الإنسان!». شرح لي هذا لماذا كان بوسعه أن يضحك في لادولوار، وحده، بضحكته التي لا تحمل السرور، بل التي تشبه صوت فروع الأشجار الميتة.

كان كل شيء جيدًا وجميلًا لمدة ستة أيام، ورحت ألاحق مخبأ أنجيل. اتفقت مع ألبين على أن أبحث عن مكان السجن، ثم أتحدث إليها بكلمات طيبة وأخبرها أن هناك شخصًا يحبها. كان ذلك سهلًا بالنسبة إلى ألبين الذي اقترح هذا الخطة. والأهم من ذلك أنني لم أجد فكرة أفضل، ويومًا بعد يوم، كنت أتقصى جدران السجن بعينيَ وأذنيَ، لكن دون نتيجة. كنت أتخيل أن أنجيل كانت في ذلك المكان، تختنق، وهذا ما دفعني إلى التعرق بشدة. أصبح الأمر شخصيًا. بينما كنت أتناول الغداء في

المطبخ، ولما كان كلاريوس هادئًا قليلًا في خضام فصل الخريف الذهبي، جلست أنظر كل ظهيرة إلى شعاع الشمس الذي يتسلل من بين الستائر ليحط على آلة الخياطة. كنت أتساءل عمّ تتناوله أنجيل، وكيف أنها قد لا تستطيع رؤية هذا الشعاع الصغير الذي يطرق جدران سجنها. ثم أفكر أنه قد توجد غرفة صغيرة في نهاية الممر، ربما هي هناك. بمجرد الانتهاء، طبعًا، كنت أنزل بسرعة وتخفٍّ على الدرج وأتوجه إلى الغرفة الصغيرة. لكنني لا أجد شيئًا.

لما كانت السيدة فيلومين تعدّ لي القهوة الطيبة في الصباح، رغبت في أن أسألها إن كانت تحمل قهوة لابنتها. ثم تذكرت الصبي الصغير الذي كان بين ذراعي أمه في الليلة العاصفة. ودائمًا في المساء بعد تناول العشاء؛ كان ساتورنين يجوع، ثم يهدأ لمدة، ثم يضحك تحت لحيته، ثم يبدأ الجوع والصمت والضحك من جديد مثل دوران الساعة. كان كلاريوس يضع ذراعه السليمة على الطاولة، ويقرب رأسه من يده ويبقى ينظر إلى أصابعه البنفسجية التي تخرج من ضمادته، وفي الحقيقة، بدا لي كأنه يرى ألمه قبل أن يشعر به. كانت السيدة تحيك جوربًا ضخمًا. أما أنا، فقد فكرت أن أنجيل لا تزال حية، لكنها تعاني!

كنت أفكر في نفسي: «ما هؤلاء الحمقى؟ أليس من الأفضل أن تكون الفتاة هنا، تذهب من هنا إلى هناك، وترتل أغنية طربية؟ أليس من الأفضل أن يكون الطفل في حضن والدته، بحركاته وضحكاته وصراخه وتبوله؟ وأنت يا كلاريوس، أليس من الأفضل أن تلاعب الطفل وتقهقه معه بصوت مرتفع، وتقول: ‹هذا ابن ابنتي، هي من أنجبته، إنها فتاة شجاعة›، ولا تنسَ أنها لم تفعل ذلك بمفردها! ما هؤلاء الحمقى؟»، عندما انتهى ساتورنين من التجشؤ، لم يستطع أن يكبت ضحكاته وذهب خارجًا ليكملها هناك. أما السيد، دون أن يقول: «عمتم مساءً»، أضاء شمعته وصعد إلى غرفته لينام. وأما أنا، فلم يكن من المناسب أن أبقى وحدي مع السيدة، لذا صعدت خلف كلاريوس. وظلت السيدة فيلومين تحيك في المطبخ الكبير بعض الوقت، وحيدة ومحاطة بصوت غرزات إبرها. ثم سمعت خطواتها وهي تصعد الدرج الخشبي وصوت الباب وهو ينشق وينغلق. في تلك اللحظة، ظهر المنزل وهو محرزٌ في الظلام، وتصدّعت مفاصله وانبعث صوتٌ خفيف من الزاوية كنت أود معرفة

مصدره، صوت طفيف يشبه مواء قطة صغيرة.

هذا الأمر أصبح مسألة شخصية، أصبح يؤلمني جدًا... بحثت لستة أيام، وفتحت، خطوة بخطوة، جميع الأبواب وتجوّلت في الظلام داخل كل غرفة برائحة رطوبتها. أحيانًا كنت أقف هناك في الظلام مددًا طويلة، دون حراك، دون أن أتنفس، لأنه بدا لي أنني سمعت شيئًا ما... لكن لا شيء. كان الصمت يسود كل مرة، لا شيء سوى الرائحة الخفيفة للرطوبة الصادرة عن الجص الرطب. خاصةً في أحد الأيام، عندما كنت وحدي في المنزل مدة ربع ساعة، حيث كانت السيدة فيلومين تقلّم الكروم، والسيد وساتورنين وأنا أيضًا، لكنني انصرفت بحجة قضاء حاجتي، وظللت طوال هذا الوقت أمام باب لم أجرؤ على فتحه لأنني سمعت صوتًا. فكرت: «هذه هي! لكن الدخول مباشرة بهذه الطريقة سيكون قاتلًا بالنسبة إلى هذه الفتاة الصغيرة!»، طوال بقية اليوم، لم أفكر سوى أنني وجدتها أخيرًا!

عندما حل المساء، قررت أن أفتح الباب وأدخل الغرفة. وكانت تلك الغرفة مخزنًا للزيت، وبداخل أحد الأوعية، كان قد غرق فأر ضخم. تأثرت كثيرًا بعدم وجود أي أثر لأنجيل، وفي لحظة من الغضب، اتهمتها. كنت أفكر: «ألا تغني لطفلها أبدًا؟ أليست عارفة أن الأمهات يرضعن الحليب والأغاني في الوقت نفسه، فيتغذى جسد الطفل على الحليب ويتغذى دماغه على الأغاني؟ هل سيكون هذا الطفل عاجزًا عن معرفة الحياة إلا من خلال الهمسات والأصوات المريبة؟ فتخلو ذاكرته من الأغاني اللطيفة التي تغنيها الأم لطفلها والتي تشبه الفواكه اللذيذة، أمّا أنا -رغم حزني- فما زلت أحتفظ بها من طفولتي بكل نضارتها وجمالها وحلاوتها».

مرت ستة أيام هكذا! ثم في اليوم السادس، أخذت قطعة من اللحم المقدد والخبز ووضعتهما في جيبي ثم صعدت إلى برج بيير لو براف. كان من المفترض أن أذهب إلى هناك لأقطع بعض الخشب الذي تستند إليه أشجار الكروم، لكنني في الواقع ذهبت إلى ألبين. استمع إليّ وأنا أشرح مصيبتي التي كانت حقيقية، فيما ينظر بثبات إلى لادولوار. كان قد طلب مني التبغ، وراح يدخن سيجارة دون أي حيوية، باستثناء خديه اللذين يمتصان الدخان وفمه الذي ينفثه. والآن، أتوق للعثور على

حل لمشكلتي، وأخبره بمصيبتي، وهو يستمع إلي بصمت تام، كما لو أنه لا يهتم بالأمر، أو كما لو أنني مجرد شجرة، دون أي أهمية. في النهاية، قال: «هيا يا رفيقي، أنا أرى مشكلتك، أراها جيدًا. سأكون أنا الذي أتحدث مع أنجيل». ذلك الموقف أثار دهشتي تمامًا. قلت: «ألا تفهم؟ ليس للأمر أهمية! أقول لك إنها ميتة ودفنت بعيدًا، ولا أحد يعرف أين. أقول لك إنها قد اختفت تمامًا كأنها لم توجد قط». لكنه سألني: «هل تعتقد أنها لا تزال في لادولوار، أم أنهم ربما قد أجبروها على المغادرة إلى مكان آخر؟»، لم يخطر على بالي هذا السؤال من قبل. أجبت: «لا، أنا متأكد من أنها لا تزال هناك، يمكنني أن أشعر بها، وأستطيع أن أرى ذلك في وجوه الآخرين، وفي عيني السيدة فيلومين». قال بفرح طفيف: «إذًا، يجب أن أكون أنا الذي أتحدث معها». ثم أخرج شيئين من الحديد يصدران صوتًا عندما ينفخ عليهما ووضعهما أمام عينيَ. وأخبرني أن الأولى مخصصة للتسلية، وكانت واحدة من تلك الآلات الموسيقية الحديدية التي تشبه ما يباع في الأسواق. ثم حمل الثانية، وكانت تشبه قليلًا مسطرة حديدية قصيرة وسميكة. عند النظر بدقة، كانت مثقوبةً مثل خلية النحل، وعلى حافة هذه الثقوب تبدو أكثر لمعانًا من الفضة. «هذه لشفاء الرجال والنساء وبنات الأرض. لشفاء جميع أهل هذه الأرض، هؤلاء الذين يجري العشب في دمائهم، وصدورهم رحبة مثل المروج والبساتين، وأيديهم مثل فروع البلوط، وبشرتهم مثل لحاء الأشجار، هؤلاء الذين يشعرون بلطف الهواء من حولهم. لكل رفيق رضع لبن الأرض، حتى لو امتص قطرة واحدة فقط، حتى لو شعر بهذا اللبن على شفتيه وبعدها مسحه، هذا، أقول لك، أنا قادم وسأشفيه»، هكذا قال.

كنت أنظر إلى الآلة. قلت: «ما هذا؟»، فرد: «إنه حديد قديم، هذا اللمعان الذي تراه على الثقوب، هو حيث يتآكل الحديد القديم الصلب بسبب لمسات فم الإنسان. وقد تآكل لأن الإنسان كان يفركه أيضًا بقلبه، الذي هو أقوى بكثير من الحديد القديم. إنها هارمونيكا دو بومين، الهارمونيكا التي كانت لجد الجد الأكبر لجدتي. تلك التي أريتك أولًا، تلك من الخشب والحديد اللّين، إنها هارمونيكا الشباب الحالي، هارمونيكا الأسواق. بينما هذه! آه! إذا عزفت عليها في مهرجان، سيقولون لك: «ألم تنته من إزعاجنا بعد؟»، ينهضون ويرحلون، وتبقى الهموم تلاحقهم، إذا ما اشتروا حلوى

التفاح يتخلصون منها لأنها فاسدة. إذا ما شربوا النبيذ، أنت تعلم أن النبيذ بمجرد شربه، يكون مرًّا. بعد ذلك، تبقى الهموم تلازمهم، وتعلم أن الهموم أيضًا تكون مرة. إذًا، كل ما هو مر ينتظرك، وهو هناك، يعترض طريقك».

بصراحة، كان يتحدث عن الهارمونيكا كأنه في حالة سكر. ثم راح يعزف عليها بصوت عالٍ في التلة حيث لم يتبق أحد سوانا بعد أن حل الليل. كنت أنظر إلى الهارمونيكا القديمة. كانت هناك، ثقيلةً وصلبة، في يد ألبين. لا أعرف كم من الوقت بقيت أنظر إلى الحديد القديم المثقوب وهو يثقل كف ألبين، لا أعرف. لا أعرف أيضًا إن كان ذلك نتيجة لألحانها أو لهذا الليل العطر والبارد قليلًا الذي كان يلثمنا بلسانه الخشن كقطة، أو لا أعرف... ولكن يمكنني أن أقول لكم: هناك، رأيت بوضوح أن أنجيل قد أصبحت بالفعل في متناولنا.

X

قال ألبين: «الآن قد نضج الليل والساعة تشير إلى الثامنة مساءً»، أجبته: «نعم، ولكن لا يزال هناك قليل من نور القمر». ثم قال: «سأمر من خلال هذا السور المحاط بالسرو هنا، ثم على طول الجدول المائي». هذا المسار سيأخذه إلى رأس الحقل، خلف المنزل.

كانت الساعة التاسعة. وكنت أقف عند نافذة غرفتي، أطلّ على أشجار السرو وحقل العشب تحت القمر الصغير. وكان القمر ينبض قليلًا كالجوهرة المعلقة بين السماء والأرض، يتدلى كالغبار المتلألئ، كأن كل نجوم السماء تستقيم على رمال بيضاء نقية. كان السيد كلاريوس والسيدة فيلومين قد ناما فعلًا لأنني سمعتهما يشخران في غرفتهما. أطفأت شمعتي وفتحت النافذة بلطف، ثم انحنيت على حافة الليل. كنت أرتدي كل ملابسي باستثناء الحذاءين لأستطيع الاستماع إلى نوم السيد على أحسن نحو، ولكنني وضعت الحذاءين بجانبي على الكرسي لأكون جاهزًا للنزول في حال احتاج ألبين إلى مساعدة فورية.

كانت ليلة جميلة حقًا، وكان صوت تدفق نهر دورانس يصدح أمامي. في الجهة المقابلة يقف بناء يسمى المثلجة، وهو في الواقع صومعة قديمة. كانت تبدو كأنها حُمَّة مستديرة صغيرة، مغطاة بالعشب، ولكن بها باب في جانبها. لقد نظرت بداخلها في بدايات بحثي، كانت نظيفة وجافة ومبلطة بالحجارة الكبيرة والصلبة، تمتلئ ببعض الدفء عندما يكون الجو باردًا، ولكنها تصبح باردة جدًا في شهر أغسطس. من المفترض أن تكون مكانًا رائعًا لتخزين الحبوب، لكنني لم أعرف لماذا بقيت مغلقة. كنت أنظر إلى الصومعة عندما رأيت ألبين قادمًا. وعلى الرغم من أنه صعُب عليّ تبيّن أي شيء بسبب الظلام، كنت متأكدًا من وجوده لمّا ترقبت وتوقعت وصوله. كان السيد لا يزال يشخر.

أمام باب الصومعة، هناك شجرة تين بجذع منحنٍ يشبه المقعد. هذا هو المكان الذي تفاهمنا أن يجلس فيه، وربما قد أتى قبل وقتِ الآن، ربما بقي صامتًا لمدة ما، ينظر إلى منزل لادولوار المنحوت من الحجر، ويفكر في حبيبته المفقودة وحالتها

المزرية. عندما أفكر في ذلك، لربما كان الأمر هكذا فعلًا؛ ربما وصل هناك وجلس على جذع التين المنحني، ربما فقدته بين أوراق الشجر وأفكاري، لأن الليل دائمًا يجلب الاسترخاء.

فجأةً وجدت نفسي أمام واقع مغاير، كأنني تعرضت لضربة مفاجئة. كانت تلك التجربة الموسيقية الرائعة التي سماها ألبين: «التحدث إلى أنجيل». لكنه لم يكن مجرد كلام، بل كان تجربة عاطفية وحسية أكثر من أي شيء. بدأت الألحان بصوتٍ هادئ يشبه صوت الرياح في الجبال، كأنني أطير بين قممها. ثم اندفع نحوي إحساس بالطبيعة كأنه غابة شاسعة، حيث تتمزق الأشجار والجذور، وتغرق في بحر من الألوان والروائح والأصوات. لقد شلبت أنفاسي! سمعت صوتًا شبيهًا بصوت الرياح في الجبال، أو بالأحرى، صوت الجبال؛ صوت طيران الحجل ونداء الراعي وهدير الأعشاب العالية التي تنحني وتتحرك مع الرياح، ثم أتى الهدوء.

بعدها، أحسست بصوت خطوات بطيئة تتردد على الحصى، وصوت الأجراس والأصوات الريفية المميزة. تجمعت كل تلك الأصوات والروائح معًا، وتحولت إلى أعمدة من الحياة المليئة بالحركة والنشاط.

كانت اللحظات تمرّ بسرعة، كأنني أشاهد أحداثًا عابرة في قرية مليئة بالحياة؛ أسمع دلوًا تسقط على الأرض، وصوت الحبل والعربة، وأرى فتاة صغيرة تضع يديها على بطنها، ورجلًا أشقر... ثم يتلاشى كل شيء.

كم كان هذا نقيًا! يجب أن أوقف نفسي وأشرح لكم بوضوح، لأن هذا هو الأمر الذي زاد من قوة الموسيقى، إنه النقاء الذي امتلأ بها. ما أثر في إرادتي للحركة بيديّ ورجليّ وأسرها، وما سارع أنفاسي، كان النقاء. إنه مثل ماءٍ بارد ونقي لا يكف الحلق عن الرغبة في شربه وابتلاعه؛ يبعث فيّ الرجفة، وأشعر كأنني جزء من زهرة وفي الوقت نفسه كأن لدي زهرة في أعماقي، ونحلة مسكرة تدور في أعماق الزهرة. وأقوى شيء هو أن كل هذا قد يحصل من خلال كلماتنا وبأسلوبنا الخاص.

بالنسبة إليّ، تعلمون أنني استمعت بالفعل إلى كثير من الموسيقى، وحتى أنني قد حضرت ذات مرة حفلة موسيقية للتراماواي في بيرويس للاحتفال. دفعت ثلاثين

سنتًا لكي أجلس على كرسي، وكان لي الحق في شرب فنجان قهوة. بجانبي كانت تجلس زوجة كاتب العدل وابنة كاتب المحكمة، وطوال الوقت راحتا تتحدثان عن جمال الموسيقى وجمال لحن الكلارينيت. أما أنا، فقد استمعت إلى صوتٍ قادم من الأشجار الكبيرة، صوت غريب ولطيف جدًا. سمعت ورقة جافة ترتعش في وسط الرياح، وطبلًا كبيرًا يصدر ضجيجًا هائلًا. حسنًا، قررت أن أترك الكرسي والقهوة لأستمع بشكل أفضل إلى هذا الصوت الرقيق. وقد يكون في ذلك شيء من قلة اللباقة، لكن ما كان بيدي حيلة. تحدثت إليّ تلك الورقة أكثر من أي شيء آخر كان يحصل حول آلة الكلارينيت. كان الأمر تمامًا هكذا.

الآن، دعوني أخبركم أكثر لتفهموا كيف تُخلق الصور الحية في وسط الليل، أعلم أنكم ربما عشتم ذلك من قبل. بالنسبة إلي، يحدث معي التأثير نفسه في كل مرة: عندما توضع سلة من الفطر في غرفة، من مجرد رائحتها، تنقلب الجدران فجأة وأجد نفسي في الغابة وزخات المطر تتساقط على الأوراق؛ أستمع إلى صوت المطر وأرى الأشجار. إنني لو حركت يدي، سألمس بالتأكيد جسد أشجار البلوط. حسنًا، كان الأمر هكذا تمامًا. هذا الرجل قد اكتشف مفتاح هذا السحر!

مشيت حافي القدمين حتى الباب، وأرهفت سمعي في الممر. لقد انقطع صوت شخير كلاريوس، ووسط خوفي من أن يأتي السيد حاملًا شمعته، تلاشت الموسيقى. ثم ساد الصمت بعض الوقت. مشيت ببطء، في أرجاء الظلام الذي كان منارًا بموسيقى ألبين اللامعة قبل قليل، كأنني أرى كتلة سوداء، وكأن جدران منزل لادولوار قد تجمعت، وجسمها الكبير الشرير قد عاد ليجسد السجن من جديد. عندما عدت إلى النافذة، كانت لادولوار موجودة مرة أخرى بكامل صلابتها وثباتها. ألبين لم يعد جالسًا على فرع التين المنحني.

في صباح اليوم التالي، وبينما كنت في المطبخ، التفتت إليّ السيدة فيلومين بوجهها العجوز وسألتني: «أأنت الذي كنت تعزف الليلة الماضية؟»، لو جاءني السؤال بطريقة أخرى، لما عرفت كيف أجيب، لكن بهذه الطريقة، كانت الإجابة مفتوحة أمامي. «نعم»، قلت. سألتني: «ماذا كنت تعزف؟»، أجبتها: «عزفت الهارمونيكا!»،

قالت: «لكنها لا تبدو كذلك. فهل الهارمونيكا تصدر مثل ذلك الصوت؟»، أجبتها: «نعم، بالطبع». واصلت السؤال: «الصوت الذي يشبه صوت الشخير؟ والصوت الذي يشبه صوت البكاء؟ وأيضًا الذي يشبه صوت نحيب الأبرياء والآخر الذي يشبه جوقة الكنيسة؟»، قلت: «نعم، بالطبع». فقالت: «لا بدّ أن مثل هذا العزف صعب جدًّا!» شعرت بالإحراج. فأنا لا أحب التفاخر، لكن في مثل هذه الحالة، كنت مضطرًا إلى المواصلة. «لا، ليس الأمر بتلك الصعوبة»، قلت، «إنني أنفخ في الهارمونيكا، ثم تخرج الألحان... هكذا». حدّقت فيّ للحظات، ثم حركت شفتيها ثلاث حركات، لكنها لم تنطق بأي كلمة. أخيرًا، قررت التحدث، لكن كان من الواضح أن كلامها لم يعكس بالضبط ما تفكر فيه. «يبدو أن لديك قلبًا طيبًا ونقيًا»، قالت، لكنه لم يكن بالضبط مفهومًا بالنسبة إليها؛ جاءت تلك الكلمات على لسانها بتلك الطريقة، لكنها كانت لا تزال تفكر في أمور أخرى، وبدا ذلك واضحًا.

عند الظهيرة، أنهى كلاريوس وجبته وبدأ يتمتم وحده. أما أنا، فقررت الصمت؛ لم يكن من المفيد إثارة غضبه. التفت نحوي وقال: «يبدو أنك صاحب تلك الموسيقى؟»، لم أجب... «لم يكن ينقصنا إلا ذلك»، لم أجب... «هذه المرة سأتسامح معك، لكن إذا كنت تعمل حقًّا في النهار كما تزعم، فلن يكون لديك الوقت لمضايقتنا عندما نحاول النوم. هذا ليس مكانًا للضجيج، هل تسمعني؟»، لم أجب... عندما بدأ الحديث، توقفت ملعقة ساتورنين؛ أما أنا فواصلت تناول طعامي كأن شيئًا لم يحدث. بدأ كلاريوس بتناول الطعام، فواصل ساتورنين تناول طعامه بدوره، ولكنني لاحظت أنه لم يضحك كثيرًا على عكس الأيام الأخرى، كانت هناك ضحكتان أو ثلاث فقط.

لما كنت خارجًا، صاح نحوي: «أين تتجه يا فنان؟»، فقلت: «أردت فقط التوقف للحظات لأتغذى وسأنصرف الآن». اقترب مني ونظر حوله للتأكد من أننا وحدنا: «من أين تعلمت العزف بهذه الطريقة؟ ساحر حقًّا! ابن... ابن... ثم قال كلمة غير مفهومة بطريقة غير لائقة، لكنها بدت كأنه يقصد بها المديح. بالتأكيد لمس جزءًا مهمًا من شخصيتي. لم أكن الوحيد الذي يرصد من خلال النافذة، بل أولئك أيضًا الذين بداخل الجدران، أولئك الذين ليس لديهم أعين، لكن الموسيقى أيقظت ذكرياتهم. لادولوار

قد استيقظت.

كان هذا مؤشرًا جيدًا وسيئًا في الوقت ذاته، يعتمد الأمر على التفسير. فأنا لم أحصل على معلومات تنبئني بما سيحدث في المستقبل. ومع ذلك، لمسته بوضوح.

بعد ذلك، غرق الجميع في صمت مطبق. كانت أصوات الحياة الروتينية في لادولوار موجودة، ولكن دون أصوات البشر. لم يكن هناك أي حديث. تحرك الجميع بصمت. ولم يتحدث بعضهم إلى بعض إلا همسًا. كانت السيدة فيلومين تطعم الحمام دون أن تناديهم: «يا صغار، يا صغار» على مثل عادتها. كانت تلقي الحبوب من بعيد دون أن تنبس بكلمة.

حاولت جاهدًا معرفة إنْ كان ألبين سيعود؟ وفي تلك الليلة وقفت أمام النافذة عاري القدمين. كانت هناك زخات مطر رقيقة تتساقط بخفة، ما أعطى الأوراق صوتًا يشبه صوت فستان من الحرير. لم أنتبه لقدومه ولم أستطع تمييز اللحظة التي بدأت فيها موسيقاه، ولكن الموسيقى كانت قد انطلقت من وراء الأمطار وعلمت أنه هنا. من الصعب التعبير عن ذلك، لا أستطيع. عندما أفكر فيه، أشعر كأنني بصدد العراك مع نفسي: «إذا لم تستطع الحديث فعليك بالتصفير!». علينا أن نصفر ونرقص، ربما لأننا من خلال الرقص نستطيع تجسيد حنان الأم التي تحضن الطفل وترضعه وتغمره في ذراعها بكل حبها، ذراع الأم المنحنية والجميلة، والشفاه التي تطوق الطفل، وكل شيء، في كل الأحوال، كانت الأمور ستكون أجمل على تلك الحال!

في الصباح التالي، اقتربت السيدة فيلومين مني مباشرة ووضعت يدها الجافة على كتفي. وقفت بجواري، وتمددت نحوي بأطراف أصابع قدميها لطولي عليها، وقالت: «أيها الصبي، هل أنت ساحر؟». نظرتُ إلى عينيها بحثًا عن إجابة لما سيأتي. همست بجواري، ووقعت كلماتها بدفء على وجهي: «كم كنت أتوق إلى موسيقاك! قلبي يشعر بما تشعر به، ولكنني لا أجرؤ على قوله! لقد لمست أشياءَ عميقة في موسيقاك، كانت هناك في الهواء، كأنها جاءت من داخلي أيضًا. فكرت: ‹أخيرًا، الآن سيستمع الآخرون إلى هذا اللحن!›، كنت كأنني على وشك أن ألد طفلًا. عضضت الفراش بقوة لأمنع نفسي من النحيب. أردت أن يسمعه السيد، أردته أن يفهم ويعلم

ما بداخلي... وكان بجواري، كالحجر. ثم فجأةً، لم يستطع أن يمنع نفسه من إطلاق تنهيدة عميقة أعادته إلى الحياة، لقد استقبل هذه الرسالة: فهم! فهم ما كان يشغل قلبي لمدة طويلة، فهم ما كبحني وقيدني وقادني إلى الهلاك! شعرت بالراحة!»، لا أتذكر ماذا كانت إجابتي. يبدو أنني كنت غير واثق في ردي وتلعثمت، ربما قلت نعم وربما قلت لا، فقد كانت قوة بومين ترعبني.

بعد الانتهاء من تجريف الحقل وتجهيزه للزراعة، بقيت هناك لا أتكلم لمدةٍ لا أعلمها، كنت مغمضًا تمامًا وغارقًا في تأملي، وكان ساتورنين يمشي إلى جانبي. فجأةً، لاحظت أنه لم يعد يضحك كما كانت عادته. سألته: «لماذا توقفت عن الضحك؟»، فأجاب: «لم تعد لديّ رغبة في ذلك». وكان ذلك في الصباح.

رجعنا أدراجنا متوجهين إلى المنزل لنتناول وجبة الغداء، كان صوت كلاريوس يُسمع على بعد مسافة ساعة من المسير. وما إن رآني، هبّ نحوي وظهرت عليه علامات الجنون. قال لي: «اسمع جيدًا، أنا ما زلت حيًا هنا، فإذا لعبت مرة أخرى ألاعيبك البائسة، فسأنهض وأطلق عليك رصاصة في رأسك. هذا كل ما عليّ فعله!»، ثم غادر وهو يتراجع إلى الخلف ولا يفارق نظره عني، وأكدّ لي: «أتسمع؟ إذا أرديتك قتيلًا، فلتكن ميتًا!»

عندما حان وقت مجيء ألبين في الليل، كنت لا أزال أمام النافذة، لكن هذه المرة كنت مستعدًا تمامًا، كان حذائي في قدمي وجعبة الطعام على كتفي. قدّرتُ طول الجدار، وكنت على علم بأنني قادر على تنفيذ القفزة. وبقيت أنتظر بفارغ الصبر. كان الليل داكنًا جدًا وكثيفًا وصعب التمييز، ولكنه لم يكن ممطرًا، ومع تعود عينيَ الظلام، كسبت قدرةً على رؤية الجزء الأبيض من جذع التين. كنت أراقب ذلك الجزء لأنه المكان الوحيد الذي يمكن أن يكون فيه. أحيانًا كان بصري يفقد هذه البقعة البيضاء ثم تعود مرةً أخرى وتظهر أمامي مجددًا، وأحس في ذلك الوقت أن لا أحد جالسٌ هناك.

دوى صوت رياحٍ عالية تتجه نحو الجنوب. وكان الهدوء هو الذي يسود الأرض في تلك اللحظات، ما عدا صوتٍ خفيف يشبه زنين النحل. وفي أثناء رصدي الفرع

الأبيض كنت أفكر في داخلي: «ما هذا؟ ما هذا الصوت؟». فمرةً أو مرتين، حصل شيء غريب حينما استمعت فجأةً إلى لحن واحد واضح تمامًا قد حملته إليّ هبات الرياح، وكان لحن أغنية فانفارنيت بلا شك، تلك الأغنية التي يغنيها الناس لينام الأطفال. كانت هذه هي الأغنية، وكانت بصوت امرأة. أقسم لكم إنّ هذا اللحن الرقيق عنى لي الكثير في أعماق الليل. أحسست أن لادولوار قد أصيبت في المكان المناسب.

وبعد ذلك، بحثت عن البقعة البيضاء ولكنها اختفت. انقطع اللحن فجأة، وسرعان ما اتجهت نحو النافذة. جهزت حقائبي وأمسكت بقضيب النافذة بقوة، وانتظرت بفارغ الصبر أول أنغام عزف ألبين المنتظر. كنت مستعدًا للفرار بسرعة، فلم أرغب في أن أتعرض لطلقات نارية. لم يكن هناك أي صوت سوى صوت الرياح العالية. لكن مع ذلك، كان هناك شخص ما يجلس على فرع التين، لا شك في ذلك. وبعد لحظة طويلة، بدأت أسمع نبض الدم في معصمي، ثم عادت البقعة البيضاء للظهور. مشيت على العشب، وإذا بنغمة فانفارنيت ترتفع... أدركت حينها أنّ ألبين لم يعزف في الليلة الثالثة. لقد كانت فرصته صعبة وغير مؤكدة أن تتكرر لليلتين متتاليتين، فما بالك بثلاث.

عندما استيقظت في اليوم التالي، توجهت مباشرة نحو حقل الكروم، ومن هناك، بقفزتين، وصلت إلى التلة واتجهت نحو بيير لو براف. أيقظت ألبين فرآني دون أن يبدي أي استغراب. «ما الذي فهمته؟»، سألني. أجبت: «حسنًا، هذا ما حدث... وشرحت له الليلتين اللتين رأيتهما من جهتي واليومين التاليين اللذين رأيتهما في لادولوار، لمّا كان هنا يستريح على سريره المصنوع من الزعتر الجاف، والليلة الثالثة التي قضيتها وأنا معلق على النافذة، مستعدًا كل الاستعداد للقفز». فنظر نحوي وقال: «يا صبي، هذه المرة، أخشى أنه علينا جمع أمتعتنا والرحيل». ما أدهشني هو أنه لم يتوقف عن الابتسام، ولكن أحيانًا، مع هؤلاء الذين يتمسكون بفكرة ثابتة، عليك أن تعيد الكلام بنبرة أخرى. فقال مجددًا: «نعم، نعم، جمع أمتعتنا والرحيل، أربعتنا».

XI

... سألته أين يمكنني أن أجد هؤلاء الأربعة؟ وبدلًا من أن يشرح الأمر لي، طلب مني بعض التبغ ليدخنه. كنت متوترًا ومتلهفًا لمعرفة التفاصيل. قال لي: «إذًا، هؤلاء الأربعة سيكونون، إذا قبلت، أنت في المقام الأول، لنكرم الكبار! ثم أنا، لأنني أتبعك دائمًا كيوم الاثنين بعد يوم الأحد. ومن ثم، الشخصان الآخران، يا إلهي، سيكونان، هذا سر بيننا إذا قبلت، أنجيل والسيد بانكراس الذي لم يتجاوز شهره العاشر. هذا ما سيكون». كنت مرتبكًا وحائرًا. قلت: «ألا يعني ذلك أن...»، رد بسرعة: «أنا لا أعني شيئًا يا صديقي، أنا فقط أقول الحقيقة». عاد إلى الجدية الهادئة، لكن البريق كان يشع من عينيه. «صديقي، وصلنا إلى ختام هذا الأمر. لقد أخبرتك قبل قليل أن الآن هو الوقت المناسب، يجب أن نرحل، وسنغادر معًا فورًا، نحن الأربعة كما ذكرت. كل شيء جاهز، وقد اتفقنا عليه، وسيحدث كل ذلك الليلة». استعادت رئتاي همس الهواء. ولكن كان يبدو لي أن الأمر ما زال مستحيلًا. قلت: «هل سيحصل هذا حقًا؟»، فأجابني: «نعم، بالضبط هكذا».

لقد بدا أنه قد تجاوز دور الملاحقة والتمثيل، خاصةً أن كل ما قاله يبدو جديًا كالقداس. ابتلعت ريقي وسألته عمّ حدث بالتفصيل. أجاب قائلًا: «سأخبرك كيف حدث ذلك في الليلة الثانية، لما كنت جالسًا على جذع التين والهارمونيكا في جيبي، ولما أُغلقت النوافذ بلطف، سمعت ضربة خفيفة على إحدى النوافذ وعندما نهضت من مكاني لأتبين حقيقة الصوت ولمست تلك النافذة، شعرت بأن هناك شخصًا يضرب بيده من الجهة الأخرى. اقتربت من القفل ووضعت أذني عليه فسمعت صوتًا مألوفًا من الجهة الأخرى يقول: «أنا محبوسة، أنا محبوسة». بعد لحظات من الحديث، أدركت أن الشخص الذي يضرب هو فانفارنيت، الفتاة التي تشدو الألحان لينام الأطفال. أجبتها بأنني هنا وأنني قادم لأنقذها. وهناك، بعد دقائق قليلة فقط من ملاقاتها، أحسست الحب يسري في عروقي وشعرت بسعادة غامرة. كنت حرفيًا على وشك البكاء من الفرح. وهي كانت تبادلني الحب وقالت لي: «أنا أعرفك»، وأنا أيضًا رددت نفس الكلمات. كانت هذه اللحظة حميمية جدًا، كأننا نتشارك القبل من خلال

القفل». توقف ليبتلع ريقه وطلب مني مزيدًا من التبغ.

قلت له: «ماذا تقصد بهذه الكلمات بالضبط؟ كيف عَرفتك؟»، ثم أشعل سيجارته وابتسم ابتسامةً غريبة. قال: «هنا، في هذه المرحلة من القصة، يبدو كأننا أطفال في عالم خيالي مليء بالمفاجآت. إنها معجزة! هل تذكر ذلك الحلم الذي رويته لك حينها؟ كيف قلت لك: ‹شعرت أنني ذاهب لمقابلتها بذراعين مفتوحتين لأحتضنها. ثم يصفر لويس وتفلت من يدي، وتنطلق في الليل حاملة حقيبتها الصغيرة، كأن صفيره حبلٌ يسلبها ويسحبها›. أتتذكر؟». وعندئذٍ، تباطأت أنفاسه وابتسم، كما لو كان الابتسام ينبع من لذة التبغ أو من عمق سؤالي. قال: «نعم، تتذكر ذلك جيدًا. وهكذا، كلّمتُها من خلال الفتحة وسمعتها تتنفس كما لو أن رأسها قريب من كتفي. أجابتني: ‹نعم، كنت أعلم أنك ستأتي لا محالة، واستطعت التعرف عليك من هنا›. قلت: ‹لماذا؟›، فأجابت: ‹لأنك قلت لي نفس الكلمات منذ عامين. في الحقيقة، كنت خائفة لأنني لم أكلم شخصًا سوى لويس حينها... ولكنني لاحظت أنني تحدثت إليك الليلة الماضية. لقد كانت موسيقاك هي التي تحدّثت نيابة عنك›.

عرفتُ الآن! أرى أن هذا الحلم وهذه الأفكار الغامضة التي كانت تحوم حولي، قد أصبحت حقيقة. جسدي، كما تعلم، قوي وصلب، وهذا الحب أيضًا قوي وصلب. معًا، يحمل كلٌ منهما الآخر، ويخلقان الحقيقة. لقد خرجتُ في تلك الليلة المشؤومة للقائها على الطريق بكامل كياني، ليست أفكاري وحدها من أخذتني إليها، بل حتى لحمي وعظمي تبعاني في هذا المسعى. وها هي ذي أتت نحوي في الظلام، تطبق عقبها على الطريق الجاف، وتحمل محفظتها الصغيرة فوق شالها. حدث ذلك، وهو حقيقي بالفعل. أمسكت بيدها وتحدثت معها. كانت هناك، ترتجف في الليل، لا تعرف ماذا تفكر في هذا الرجل غير المتزن الذي يتحدث أمامها... يتحدث عن تلك البلاد الجميلة في آخر الطرق، عن قلبها الشفاف والنقي كالزجاج، عن المنزل الذي يتسع لمهود الأطفال. عن هذا الرجل الذي يقول لها: ‹سنبني معًا بالطوب الذي سيدوم حتى آخر أنفاسنا›. نعم، في تلك الليلة الملعونة منذ عامين، تحدثت معها عن كل ذلك، وكذلك تحدثت معها الليلة السابقة بموسيقاي. ثم قلت لها: ‹أنا لا زلت أرغب فيك، وأنتِ؟› فبكت، وهناك خلف الباب، قالت: ‹أنا لم أعد أستطيع ذلك›. وكان ذاك، وكان كل

شيء.

في الليلة التالية، وهي الثالثة، أي البارحة، لما وصلت هناك، وضعت فمي على الفتحة وسألت: ‹أيتها الآنسة، قلتِ لي: ‹لم أعد أستطيع. لماذا؟›، فأجابت: ‹لأنني تغيرت، لستُ نفس الفتاة. وإذا وقفتُ في الهواء الطلق، سترى أنني لن أتمكن من أن أنظر إلى عينيك، لأنك عرفتني قبل هذا... وسوف ترى التغيرات الواضحة في مظهري›. قلت لها: ‹إنك تصنعين أوهامًا. أنا أقول لك: ‹أحبك›. بالطبع، هذا الحب يرجع إلى ذلك الوقت السابق... ولكن بالنسبة إليَ، ستظلين دائمًا الفتاة نفسها التي رأيتها عندما التقيتك›. قالت لي: ‹لا، لا داعي لقول ‹لكن›، أعلم جيدًا أنني قد تغيرت. وفي الحقيقة، وجدتك هنا عند الباب، لذا فكرت في كثير من الأمور منذ الليلة الماضية، وعليَ أن أعترف بكل شيء...›

هذه الفتاة، يا رفيقي، كانت فتاة فريدة من نوعها، وقد عرفت ذلك منذ اللحظة التي رأيتها وهي تسوق حصانها وعربتها أمامي بمهارة. عندما جئتَ لملاقاتي في بيرويس، قلت إن لديها طفلًا صغيرًا، فتوقعت أنها ستخبرني بكل شيء لأنها صادقة وصريحة. كان من الواضح كيف كانت تتعامل مع الخيول. لا يمكن إلا أن ينطبق صدقها تجاه الحيوانات مع صدقها تجاه نفسها، كنت متأكدًا من ذلك. والآن ها هي ذي تحكي لي قصتها، تنفث الحياة فيها من خلال ثقب الباب. لم يكن هناك أي شيء يجبرها على ذلك، إنما عدالتها الشخصية هي التي دفعتها للحديث. كانت تعرف أنها يجب أن تتحدث. روت كيف أصبحت في خدمة ذلك الرجل. نعم، نفس الشخص الذي قصدته، بالطبع! باعت نفسها له وللآخرين.

كانت تروي هذه الأمور ببطء وفي وقتها المناسب. كانت تتحدث بلا شفقة. وشعرتُ بالاحتقان كأن الأشياء تشتعل بداخلي. فيما أنا محاط بالغفران، كالمروج الخضراء، أردت أن أقاطعها وأقول: ‹فهمتك يا آنستي›، ولكنها كما كانت دائمًا، صممت على الاستمرار. أخذتِ الزمام بيدٍ من حديد وواصلت بكل قوة. وأخيرًا، حان الوقت لقول الأصعب. بقي الشيء الأصعب فقط، بقيت صامتة مدة طويلة، وهذا طبيعي. المرأة هكذا... مرهفة الإحساس. وأنا أيضًا لم أجرؤ على التحدث، فماذا

بوسعي أن أقول؟ انتظرت، وكنت أفكر: ‹هذا هو واقع الأمر، ليس علينا أن نعقده أكثر›. ثم أعادت جمع شتات نفسها وسألتني: ‹أما زلت هنا؟›.

أقول: ‹نعم، أسمعك تتنفسين، ثم ماذا؟› ربما لم تسمعني، لكنها واصلت الحديث هناك، بالقرب من الباب، تفرغ مشاعرها. كنت أستمع، أستمع بكل تسامح لأنني أحمل العفو. كانت تتحدث كأنها على وشك الموت، تعترف بكل شيء، كأنها تعلّق حبلًا حول عنقها وتشنق نفسها: ‹لديّ طفل صغير، لا أعرف مَن أبوه، كنت امرأة للجميع، وأشعر بالعار داخل جسدي. عندما تأتي أمي لتحضر طعامي، لا أجرؤ على أن أقول لها: ‹أريد أن أقبّلك›. لا يمكنني أن أقبّل أمي وأنا أتذكر ما فعلته. أنا أحط إنسانة، متنجسة من الداخل، استخدمت جسدي لجني المال...› وحينها، تبدأ بالبكاء ويستيقظ الطفل.

‹آنستي›، قلت لها، ‹هدّئي الصبي الصغير، ثم سنرى›. وعندما عادت، بدأت أنا الآخر في الكلام. استمر ذلك مدةً طويلة، حتى أصبحت تشعر بالتعب وهي تنفخ عبر ثقب الباب. قالت: ‹أنا أيضًا، أنا أيضًا، أود ذلك!› الآن، هكذا: أردت أن أنهي كل هذا الأمر، وأخلصها. ما أريده، كما تعلم، أريدها سعيدة. في الأخير قالت لي: ‹اذهب الآن، ابحث في صندوق العربة، ستجد مبراغًا›.

إذًا يا صديقي أميدي، هكذا سيكون الأمر. عند بداية الليل، تعال إلى هذه الصومعة، لا حاجة إلى الكلام، هي تعرف كل شيء. احفر تحت الباب بيديك، لا تقلق فالتربة ناعمة، ثم أدخل المبراغ، ستأخذه منك، ثم ستفك قفل الباب. وبعدها ما عليك إلا أن تحزم أمتعتك وتنتظر، لأنني سآتي. رفيقي، أطلب منك هذه المساعدة الأخيرة وأن تتحمّل هذا العبء، بعدها سيكون خلاصك، سأذهب وحدي في طريقي، إن لديّ كتفين عريضتين وقدمين ثابتتين ويمكنني أن أعتني بنفسي».

هذه القصة، تركتني حزينًا ومرهقًا. لكن تخيّلوا كيف يأتيك حل هذه المشكلة كلّها جاهزًا، حبلٌ معقود يفك نفسه بنفسه: كان ذلك مذهلًا جدًا. قلت لألبين: «في جماعتنا نعتبر أنفسنا ذوي خبرة، ولكن أنت، أنت رئيس الجمهورية وأكفأ الناس، أنت بالتأكيد تستحق التكريم! ولكن هذا ليس كلّ شيء، ما الذي ستفعله بعد ذلك؟»، أجابني: «بعد ذلك؟ ما يأتي بعد ذلك واضح تمامًا». قلت: «كيف ذلك؟»، نهض وقال:

«حسنًا، سنتجه إلى بومين. لدي مزرعة صغيرة هناك، وقطعة أرض مناسبة لبناء منزل، سأستأجر ما حوله، ونكسب رزقنا، أما بعد ذلك، فسيأتي وحده». سألته: «ماذا عن الطفل؟»، فقال لي كأنه دهش من سؤالي: «الطفل؟ ماذا عنه؟ إنه ابن أنجيل، سأتخذه ابنًا لي، سأجعله جزءًا من بومين، وسيتربى أحسن تربية. إن وطني لا ينتج سوى الرجال الشجعان والعادلين، أليس كذلك، يا جدي؟»، أجبته وأنا أضحك: «سأريك من الجد!»، نعم، لقد كان مثالًا عن أهل هذا الوطن.

مضيت في طريقي نحو الليلة الأخيرة في لادولوار، كنت قلقًا. وهكذا، عندما حانت الساعة السادسة ودخلنا المطبخ، وضعت السيدة فيلومين أربعة صحون حساء على الطاولة. لم يكن هناك سوى صوت حركاتنا في هذا المطبخ، لم يُسمع صوت للكلام. في تلك الليلة، كانت هناك أولًا أربعة أصوات عند وضع الصحون على الطاولة، ثم ثلاثة أصوات عندما اقتربنا من كراسينا، أنا وكلاريوس وساتورنين، ثم للحظة ما، صوت دقات الساعة الطويلة، وأخيرًا، صوت السيدة وهي تستعد للجلوس على كرسيها. بعد ذلك، أصوات الملاعق وهي ترنّ على الفخار فيما نتناول الحساء بصوت تنقطع فيه الشفاعة. وفي مكان ما، صوت القط الصغير وهو يلعب بقطعة من الورق.

ينوح الموقد تحت حمولته من الجمر، ويتردد طنين ذبابة بجوار أدوات المطبخ، القط الصغير يلهو الآن مع كرة من الخيط. انتهينا من تناول الحساء. لا يوجد حديث. تسحب السيدة فيلومين كرسيّها وتنهض. بالكاد يُسمع شبشبها. تغلق باب الخزانة وتحضر اللحم المقدد والجبن والخبز. لا صوت سوى أصوات الصحون. يعمّ الصمت. في كل مرة يقطع كلاريوس جزءًا من الجبن، يصطدم سكينه بالصحن، فهو ليس ماهرًا بيده اليسرى. تذكرتُ أن ساتورنين لم يضحك منذ ثلاثة أيام. الصمت مطبق... لا صوت سوى دقات الساعة ولهو القط. أقطع جزءًا من الجبن ببطء؛ ومع ذلك، يصدر صوتٌ ناعمٌ عندما يلامس طرف السكين الصحن. لا كلمة! تتنهّد السيدة فيلومين فينظر كلاريوس إليها. أعلم أنه ينظر إليها، لا أرفع رأسي ولكنني أعلم ذلك. تصفّر النار وسط صمتٍ كامل. هكذا هي وجبات لادولوار! هذا ما كانت عليه كل ليلة! لم يكن لدي حاجةٌ يومها إلى الحديث، أو إلى الاستماع إلى الحديث. انتهيت من الطعام، وسحبت الكرسي. ألفّ سيجارة لأدخّنها خارجًا. هناك، في جيب سروالي،

المبراغ بارد وصلب على فخذي. أقول: «مساء الخير للجميع». لكي أنطق هذه الجملة فقط، كان عليّ أن أرغم حلقي. لم يجب كلاريوس، أو ساتورنين، أو السيدة فيلومين التي كانت تضع الصحون تحت المغسلة، ربما لم يسمعوني. أعيد قولي: «مساء الخير». لا يوجد رد. فأغادر.

أدخلت المبراغ تحت باب الصومعة وشعرت بأنه يُسحب سريعًا من الجهة الأخرى. حقيبتي كانت هناك في العشب. الآن، لم يتبقَ سوى الانتظار. ظهر ضوء في نافذة غرفةٍ من المنزل. كان كلاريوس يستعد للذهاب للنوم، ثم انطفأ الضوء. تساقط الندى بغزارة في الليل، وتحققت من أن التبغ لم يتأثر بالرطوبة. تحرك نسيم خفيف على أوراق شجرة التين الكبيرة. بعد لحظة، ظهر الضوء مجددًا في النافذة: السيدة ذاهبة للنوم، ثم انطفأ الضوء. لم يتبق سوى الانتظار. كنت أسمع المبراغ وهو يحاول فتح القفل. سمعت ألبين يقترب من بعيد، عبر الحقل، ومع ذلك أصابني الذعر عندما وضع يده على كتفي، قال: «أنا هنا، يا رفيق». اقترب من الباب. فيما تنحيت قليلًا. العشاق يحبون أن يكونوا وحدهم، دون تدخل. يا لها من ليلة جميلة! ويا لها من خطيئة... يا لها من خطيئة، كنت أفكر، أن يُغلق باب الحظيرة على امرأة والجو جميل في الخارج.

كان الهواء لطيفًا مثل رقصات الأشجار، يعبق برائحة الأوراق الرطبة والعشب الكثيف. غطانا الليل مثل رداء ساطع. كانت هناك نجوم تملأ السماء كلها! همس نهر دورانس بنعومة تحت أشجار الصفصاف. بالقرب من أوريسون، رأيت نيرانًا قد أشعلت لحرق بقايا الكروم. بين الفينة والأخرى، تندلع لهبة كبيرة ويعلو الدخان في الليل مثل الشعر المتدلي من الحصان. ناداني ألبين: «هيا، يا رفيق، تعال انظر»، أتيت. كانت أنجيل هناك! تقف بالقرب من الباب المفتوح، تحت ظلام الصومعة، ونور الشمعة. كنت أرى أنجيل من الخلف، وهي تلتف بشال كبير يغطي رأسها وصدرها وتمسك عليه بيديها. رأيت قليلًا من أنفها أيضًا. هذا القليل، هذا القليل منها ومن أنفها، كان جميلًا مثل جمال هذه الليلة.

قال ألبين: «ألم يسبق لك أن اختطفت فتيات؟ لا؟ حسنًا»، في تلك اللحظات

العصيبة، كان عليّ التعرف إلى أنجيل بسرعة، لا وقت لدينا. طبعًا، حدّثها عني فيما سبق، فهي تعرف من أنا. أحضر ألبين سلة من خيوط القش الجافة وملأها بقليل من التبن، وها هو ذا السيد بانكراس الصغير جاهز للرحلة. قال لها: «سنحملها معًا، أنتِ وأنا، أيتها الآنسة، كما لو كانت سلة من التفاح، وسيحظى الطفل بنوم رائع بلا شك». هذا جميلٌ قولًا، لكن التنفيذ ليس بهذه السهولة. وضعنا السيد بانكراس في السلة، ولكنه بالتأكيد لم يكن سيستمتع في أثناء نومه بارتجاف المشي والهرولة. لا أعلم هل تحدثنا بصوتٍ مرتفع في تلك المغامرة، أم أن كل شيء كان مجرد همسات... على أي حال، كان ينتابني شعور بالقشعريرة كأن شخصًا ما يحدّق في ظهري. فكرت بكلاريوس وتركت حقائبي، اتجهت نحو المنزل ورحت أغوص بذراعيَ في تلك الناحية المظلمة حتى لمست رجله وبندقيته الباردة. لقد كان يتأهب لضربي بالبندقية في وجهي، احترمت كسر يده، لكنه سعى لتحرير بندقيته من يدي ليطلق عليّ النار. لقد كانت لحظات صعبة بلا شك، ولكنها كانت في صمت. عندما يتعلق الأمر بالحياة والموت... ثمة شيء غريب: في تلك اللحظة، كنت أرى ألبين وحبيبته يركضان في الحقل الوعر ويحملان سلة الطفل، وفي الوقت ذاته كنت أقول لنفسي: «اصمد بضع لحظات أخرى، حتى يتجاوزا الجدول الصغير. بعد ذلك، دعه يفعل ما يريد...»

بدأت أشعر فجأة أنه أصبح ضعيفًا تمامًا كأنني أمسك كومةً من الأعشاب بدلًا من رجل غاضب. وقعت بندقيته على الأرض وأصدرت رنينًا عاليًا عندما ارتطمت بالحجارة. فكرت: «لقد أصبحت المشكلة أخف وأهون». ثم أدركت أنه لا يزال قادرًا على المقاومة فطرحته بلطف على الأرض. لاحظت أنني ضغطت على ذراعه المصابة دون قصد. فركتُ الولاعة بيدي لأستطيع الرؤية. كان ممدّدًا على الأرض كالمصلوب. لم يعد يتحرك، لكن عينيه بقيتا مفتوحتين، ولن أنسى نظرته ما حييت. كان وجهه شاحبًا كالموت فوق لحيته. نظرتُ إليه تحت نور الولاعة، لقد كانت لحظة خلاص بالنسبة إليه! كان قد قاتل ضد ما يعتبره شرًا، من وجهة نظره، بقدر ما استطاع، والآن حانت النهاية، بحسب فكرته طبعًا. فتح فمه وظل ينظر إليّ بعينين مفتوحتين: «اقتلني»، قال. أوه، يا رأس الصخر الواهم! أهذا ما يعتقده؟ هل أبدو أنني سأضرب

رجلًا وهو مستلقٍ على الأرض؟ هذا كبرياء لا يمكن تصديقها! قفزت فوقه بحذر شديد، وأخذت حقيبتي، وعندما كنت أستعدّ للمرور من خلال الحقل، التفتُّ وقلت له: «أتريد أن أخبرك بشيء يا كلاريوس؟ حسنًا، يا لك من شرير مقيت!».

XII

لو كنت مكان ألبين، لخرجت من الحقل واتجهت نحو المنطقة الآمنة بجوار نهر دورانس، ثم تجنبت المخاطر وتوجهت نحو الطريق الرئيسي باتجاه وادي الآس. هناك، حيث توجد شجرة بلوط كبيرة ومتينة تبدو مناسبة لصناعة الفحم. كنت سأنتظر رفيقي في الظلام. عندما وصلت، تمنيت أن يكونا معًا هناك، وهكذا وجدتهما: ها هو ذا ألبين وأنجيل وسلة الطفل. صحت: «لقد كانت خطتك محسوبة وناجحة يا رفيقي!»، رويت لهما قصتي بطريقتي الخاصة، إذ لم أرد أن أثير قلق أنجيل، ومر الأمر كما يجب. علاوةً على ذلك، كانا مشغولين بعضهما ببعض: لقد غمرتهما السعادة بأن يكونا معًا. كان ذلك مسعًى يستحق العناء.

والآن، بعد أن التم شملهما أخيرًا، زادت العاطفة كثيرًا، كالنار التي تحترق طويلًا ثم تشتعل بشدة نحو السماء. لم يكن مجرد حب بل كانت هذه العاطفة عارمة! ربما تسيئون فهمي: أنا لا أعني أنهما كانا يتبادلان القبل بشغف وقوة مثل الصفعات أو يستخدمان عبارات مثل: «حبيبي، وحبيبتي»، بطريقة تجعل الشعر يقف من جلدهما. لا، بل إن الأمر كان هادئًا وراسخًا مثل صباح جميل. كنت أحس بالعطف الذي ينتقل بينهما مثل قافلة من الأضواء القادمة من وراءهما. لاحظت أنني لم أرهما جيدًا في ذلك الظلام، ولكنهما كانا على الأرجح يبعثان هذا التأثير في الهواء من حولهما بأنفاسهما. ومع ذلك، كان من الحكمة أن تكون بيننا وبين لادولوار بعض التضاريس والأشجار لنحتجب عنها.

واصلنا المسير. لم يكن لدينا اتجاه محدد: الهدف كان الوصول إلى وادي الآس الذي كان يعد بوابة الجبال. حمل ألبين السيد بانكراس النائم في سلته. وكانت أنجيل تمشي بجانبه، سعيدة بأنها لم تعد تواجه عقبات الحقل عند كل ثلاث خطوات. أما أنا، فكنت في الخلف. كنت مثل الراعي والحامي. إن المشي في الظلام أكثر تعبًا من المشي في النهار، ففي النهار، يمكن للعينين أن تتمتعا. النظر... إنه يحيط بكل شيء أمامك وبجانبك مثل كلب وفي يدور حولك، يثير فيك أشياء جميلة: بعض الأشياء الصغيرة والجميلة التي تشغل فكرك. أما الليل، فإنه قد يؤذيك بشدة إذا كنت تحمل

همًا. يقفز فجأة فوق ظهرك، يجلس على كتفيك، يصبح كثيفًا وثقيلًا ويجبرك على حمله، جنبًا إلى جنب مع كل ما تحمله في داخلك، وتلك مشقة كبيرة على رجليك.

في تلك اللحظات كان همي في لادولوار. كنت أرى بذهني، تحت ضوء ولاعتي، كلاريوس ممددًا على العشب كالمصلوب. أسمع صوته يقول «اقتلني». كان الموت قد تسلّط عليه... أصبحنا نمشي على الحجارة. لم تعد هناك زهور على الشجيرات. وتمامًا مثلما كنت متأكدًا من العثور على ألبين وأنجيل تحت شجرة البلوط لأنه المسار العقلاني الوحيد، كنت متأكدًا أيضًا من أنني أستطيع رؤية حركات كلاريوس. لم يكن يفكر في تثبيت مسامير على دعامات العلية أو في حبل المشنقة، على الرغم من أن الانتحار شنقًا منتشر بكثرة في الريف، ولا في البندقية الموجهة نحو الفم بإصبع يبحث عن الزناد. القفز من النوافذ العالية؟ لا. أحس كأنني داخل جلده، أسمع بواعث حركاته. إنه رجل لديه موعد مع الموت: موعد مع الغرق. منذ مساء ذلك اليوم الذي هربت فيه ابنته مرةً أخرى مع هذين الرجلين اللذين لا يعرفهما، منذ ذلك اليوم، سمع صوت الموت، صديقه المخلص، يهمس في أذنه: «غدًا». وغدًا، سيذهب إلى الموعد. سيُغرق نفسه في نهر دورانس.

الليل يملؤني برائحة الأوراق المبللة والخشب الفاسد. الحبيبان هناك أمامي يتحدثان عن أشياء لطيفة. الطريق يتصاعد، إنهما لا يشعران بذلك، أما أنا الذي أصطدم بكل الحجارة، فأقول: «لعنةُ الله!»، نعم، بالتأكيد، سيذهب كلاريوس إلى الموعد قريبًا. أنتم تفهمون: الألم، والقلب الذي يتعفن كالضرس المريض، ثم هناك، على بعد خطوتين فقط، العلاج الوحيد بحسب نظرته البلهاء، فماذا غير ذلك يمكن أن يداويه؟

في مثل تلك الأوقات، في تلك العلاقات الغريبة مع الموت، يبحث المرء عن أماكن هادئة، يختبئ فيها ليحتضن حبيبته براحة، ويتبادلان اللمسات الآمنة بعيدًا عن أعين المتطفلين. لا يحتاج إلى زخارف وأصوات مبالغ فيها، بل يرغب في أن يكون في هدوء مطلق ليتمكن من الاستمتاع بعناقها ولمساتها الطيبة التي تداويه. لكن يبدو أن عقل كلاريوس كان منغلقًا، إذ يرى أن نهر لادولوار مناسب تمامًا، كان متاحًا وقريبًا...

وعلى الرغم من ذلك، كانت هذه القصة مقدّرة، ولم يكن هناك من داعٍ لتجاوزها. لو كان قد تفكّر جيدًا، لو كان لديه قليلًا من الحكمة، كان بوسعه أن يعيد كل شيء إلى سابق عهده، منذ اللحظة التي عادت فيها ابنته، حين وصلت من مارسيل حاملةً ابنها في حضنها. منذ أن فتحت الباب قائلة: «ها أنا ذي يا أمي»، لم يكن عليه سوى توفير حياة هادئة لها، لقد كانت لديه الفرصة، فقط لو كان لديه قليل من الحكمة!

بالنسبة إليّ، أنا أتعلّق بالأشياء والأشخاص، وأكثر بالأماكن. لقد أصبحت لادولوار جزءًا مني. نعم، أدرك أنني أرتحل مثل جميع الرجال من نوعنا: أحيانًا هنا وأحيانًا هناك، وماذا بعد؟ هل تعتقدون أننا دائمًا نغادر ونحن راضون، حتى عندما نغادر بمحض إرادتنا؟ لكن الأمر ليس هكذا، لادولوار، والسيدة فيلومين، ماذا ستفعل بالغد الذي سيشرق بأشعته الحمراء على الحقل؟ وساتورنين بضحكاته القديمة، وحتى كلاريوس، لقد أخذوا جزءًا كبيرًا من داخلي. أنا متعلقٌ بهم. لو كان بوسعي دفع عشرة فرنكات لأكون حاضرًا هناك وأراقبه عندما يقفز في الماء، لن أمنعه وبالتأكيد سأتركه يشرب قليلًا من الماء، قبل أن أقفز لإنقاذه. سأقول له: «كما ترى، لقد قسوت عليك قليلًا في مواجهتنا لأنك كنت تمسك رجلي وتمنعني عن الحركة»، ولكن في داخلي، سأفرح. عشرة فرنكات... أقول لك!

كانت الكلاب تنبح عندما نمر بالقرب من المزارع. لاحظت أن الكلاب تنبح من الجهة اليسرى؛ وهذا يعني أننا قد تجاوزنا حافة الهضبة التي تحمل لادولوار، والآن، أصبحنا نمر عبر أراضٍ زراعية، لقد نجونا. قلت نحوهما ملتفتًا وضاحكًا: «هيا، أيها العاشقان!»

سرنا مدة طويلة دون أن نلاحظ مرور الوقت. اقترحت أن نأخذ استراحة، ربما يكون الوقت نحو الثالثة أو الرابعة صباحًا، فنرتاح ونستنشق قليلًا من النسيم الطلق. اجتلسنا على سطح ناعم مبطن بالزعتر الجاف، ولم يكن من السهل النهوض. استيقظت بعد نوم عميق على بكاء الطفل الصغير، كنت أرى في حلمي محاولاتي في إيجاد مخبأ أنجيل. تخيلت نفسي مجددًا في لادولوار وأنا أبحث عنها بلا فائدة. عندما فتحت عينيّ، كانت هناك أمامي، أخيرًا، للمرة الأولى، رأيتها. ربما تتذكرون،

في الحقيقة، أنني لم أرها من قبل. لم أرها رؤية حقيقية، لأنها كانت هناك، في المزرعة، ملفوفةً بشالها أمام باب الصومعة في قلب الليل.

إنه فجر جديد، كأننا نذوب في الجير وسط السماء. لا يزال هناك بعض الظلام في الوادي، والأضواء ما زالت تضيء في الجانب الآخر من نهر دورانس في قرية فيلنوف. إنه يوم جديد، انطلق السنجاب الطائر مستقيمًا في كبد الرياح، وكان صوته حادًا مثل سكين يخترق ثمرة طازجة. ثم، فجأةً، شرقت الشمس قادمة من إيطاليا، ورأيت أنجيل. انحنت على سلة القش المنسوجة وحملت طفلها، مونسيو بانكراس. وضعته على ركبتيها الناعمتين ورفعت رأسه قليلًا ليكونا مثل وسادة تحت رأسه الصغير. رفعت شالها وفتحت كمّ قميصها، أخرجت ثديها ووضعته على فم الطفل المنكوب، فتوقفت صرخات بكائه فورًا. ثم رفعت رأسها وعينيها وشفتيها بابتسامة واسعة وثابتة. كان مونسيو بانكراس يمضغ حلمة ثديها بحماس والحليب يسيل من فمه، وغمزت عيناه باستمرار. كانت جميلة، إنها درس عن الحياة، أنجيل!

أصبحت أراها بشكلٍ كامل الآن، مخترجة من ظلمة الليل. كنت أراها على امتداد ماضيها ومستقبلها. امرأة مثل هذه هي جزءٌ من الأرض، تمامًا كشجرة، تلة، نهر، أو جبل. هي جزءٌ من هذه الأرض الكروية. ستدوم مثل النجوم! كانت جميلة بشدّة، أقسم لكم. تلك الفتاة العظيمة بثديها اللطيف والحنون والنابض بالرحمة، وطفلها الجائع الجميل. أمسكها السيد بانكراس بيديه الصغيرتين ولعب بثديها الناعم كمن يعزف على العود. وعندما رأى ألبين هذا الثدي الجميل في هواء الصباح البارد، سألها: «ألا تشعرين بالبرد، آنستي؟»، إنها أم، أم كهذه تمزج بين حب رجلها وحب طفلها دون خجل. قالت وهي مغمورة بالحب: «أعطوني شال الطفل». ثم صححت قولها: «أوه، أقصدك أنت يا ألبين!»، أخذ ألبين الشال وأعطاها إياه.

إذًا، كانت الحياة مفتوحة أمامهما على مصراعيها. لم أكن قلقًا من هذا الجانب. الحياة كانت أمامهما لأنهما كانا يعيشان بحرية على هذه الأرض الفسيحة. قد تقولون، حُرّين مثل حرية الحيوانات، وماذا بعد؟ لقد تأملت هذا بعمق. في بومين، ذلك المكان الذي أُخرِج فيه الناس من المجتمع. طردوا، وعادوا ليصبحوا متوحشين

بنقاءِ وبساطةِ الحيوانات. لم يكونوا معقدين: كانوا أصحاء وعادلين. هذا ما أعرفه ببساطة ودون زيف. كانوا يواجهون الحياة ببراءة الأطفال، بأيدٍ ممدودة، وبحركات بسيطة وصادقة. أراد ألبين المرأة التي يحبها، وها هو ذا قد حقق ذلك. الماضي قد رحل، ولن يعود مرة أخرى، ولكنه نظر إلى الحاضر، إلى الاخضرار في الفجر وإلى ذلك الثدي الجميل وجداول الحليب على وجه الطفل.

ما مضى قد مضى الآن. لقد قابلته السماء بكل بساتين نجومها في داخله. إن كلاريوس بكل ذكائه ورجولته لم يتمكن من تحقيق السعادة، ولنفس السبب، سينتحر في نهر دورانس قريبًا. عاود النوم السيد بانكراس بعد أن شرب من الحليب اللطيف حتى شبع، وغفا بفمٍ مفتوح. وضعت أنجيل طفلها في السلة وغطته. كانت السماء تتفجر بالألوان مثل الرمان الناضج. «هيا، لنواصل الطريق!»، قال ألبين. أمامنا، رأيت وادٍ مليء بالضباب الأزرق: وادي أس، الممرّ! إنه الطريق الذي سنصعد منه نحو بومين تحت شروق الشمس.

لكي أشرح لكم ما سيأتي بعد هذا، يجب أن تتذكروا أن همومي بشأن كلاريوس وتأملاتي في سقوط لادولوار، وهي -عمومًا- من نسج خيالي، لم يفارقا ذهني. كانا في داخلي كالماء الذي يتموج مترافقًا مع خطواتي ويلازمني. لكن كانت لدي فكرة تقول: «ما دامت الشمس لم تشرق بالكامل، لم يفت الأمر بعد، من الممكن إنقاذ الوضع، وكنت أنتظر معجزة. لكن المعجزة أتت من داخلي، من الصورة التي ملأت رأسي فجأةً، وهي صورة السيدة فيلومين الطيبة والبسيطة والنبيلة، ظهرت أمام عيني في اللحظة التي تجاوزت فيها الشمس جبال الألب وبدأ الخطر يداهم لادولوار.

تخطيت ألبين الذي كان يحمل الطفل ويسير بهدوء بجانب أنجيل. ووقفت في طريق الصعود إلى الجبل بذراعين ممدودتين، وقلت له: «يا صبي، يا عزيزي المسكين، عليك أن تعيدها». سألني بدهشة: «هل أنت مجنون يا جد؟» صوته كان حزينًا لأنه تنبأ بما سأقوله. «آه، يا صبي، ربما أكون مجنونًا، لكن الأكيد هو أنه علينا أن نتحدث. ما يبدأ الآن، بخطواتك وخطوات الآنسة، هو حياة جديدة. حياتك! إذًا، أنا أريد أن أخبرك بشيء، فقط انتظر للحظة، سأخبرك بمَ عليك أن تعرفه، ثم سأبتعد

من طريقك، وإذا أردت أن تمر، ستمر». ترك حضن أنجيل. وكانت ذراعه متراجعة، استغرق وقتًا ليفهم ماذا كنت أعني. قال: «تكلم، ما الأمر؟»، أخبرته: «أولًا، يا صبي، أريد أن أقول لك شيئًا: إن العمل الصالح لا يُبنى أبدًا على أعمال سيئة». قال: «نعم، ثم ماذا؟»، أجبت: «هذا هو، هكذا هو الأمر، لا يوجد شيء آخر لأقوله». لكنه أعاد قوله: «أعني، ماذا بعد ذلك؟»، أجبته مجددًا: «لا شيء بعد ذلك، فقط هذا، لا يوجد شيء آخر بعد ذلك. هذا فقط ما أريد قوله». بقي ينظر إلى عينيَّ بعض الوقت. ثم قال: «إذا كنت تقصدني بقولك يا رفيق، فأنت تفكر مثلما أفكر أنا». قلت: «ربما. ثم ماذا؟»، أجابني: «ثم ستعرف، لقد انتظرتك أن تبادر بالكلام، ما منعني هو المرأة التي أحبها، المرأة الموجودة معي هنا. أنت تعلم، لقد اشتقت إليها كثيرًا! والآن، هذا صباح جديد، وأنا هنا أمام الطريق الصحيح، تحت شمس مشرقة وناصعة تغمرني بضوئها، وها هي ذي عزيزتي هنا، في ذراعي، بدفء حياتها وثقلها وحركتها، وهذا يغفر لها الكثير. بالطبع، أدرك أن الطريق الذي سلكته لتحريرها كان سريعًا، لم آخذ في اعتباري كل التفاصيل، لقد أخذتها بسرعة بقوة إرادتي وجررتك معي. لقد فكرت في هذا الأمر بنفسي، وربما قبلك، ولكن في اللحظة التي انطلقنا فيها نحو الحرية، كنت أشعر أنني حتى لو زرعت الحبوب بالطريقة الخطأ، فإن الوقت قادم لحصاد المحصول الجيد. ثمة أيضًا شيء آخر؛ ها هي ذي هنا، تنبض بالحياة، ولها الحق في المشاركة والتعبير، لها الحق في أن تقول: ‹أعتقد أنه ينبغي فعل هذا أو ذاك›. لم أعد وحدي الآن، رأيها مهم».

نظر إليها وكانت أنجيل مدهوشة من نفحات الهواء الصباحي والحديث الذي عرفت تمامًا إلى أين يؤدي. كان وجهها أبيض كالورقة. مثل بياض عينيها. وضعت رأسها على كتف رجلها وقالت بكامل جسدها: «نحن اثنان في واحد، لكنك وحدك دائمًا. أميدي، أيما تريد، وماذا تشاء، نحن معك». كانت الشمس تشرق. قد يكون كلاريوس في لادولوار، أو ربما كان بالفعل في طريقه إلى نهر دورانس. ربما يستغرق الأمر كله مسألة ربع ساعة. «حسنًا»، قال ألبين، «إذا كان هذا ما تريده زوجتي، فلنعد أدراجنا». قالت أنجيل: «أريد أن أتحدث مع والدي وأمي، ثم أريد أن أغادر لادولوار معك في ضوء النهار، أمام الجميع، ونودعهم كما يجب، وأن يقف والدي إلى جانب

الباب وهو يقول وداعًا ويلوح بيديه». هذا قد ينقذ كل شيء... أو يفسده. قلت لألبين: «فكر جيدًا: إذا كنت تفعل هذا احترامًا لي، فالأحسن أن ترحلا إلى بومين، لقد فعلت ما يكفي». فرد: «لا، أفعل هذا احترامًا لي أنا»، ثم أضاف: «ولكن هناك شيء آخر: عندما نتجه نحن الثلاثة نحو لادولوار في ضوء النهار، لا تنس بندقية كلاريوس، يجب أن نكون على استعداد لذلك». قالت أنجيل: «بالتأكيد»، ثم أضافت: «ولكن على أي حال، علينا أن نعود».

وعلى الطريق عائدًا، بدأ ألبين يحدّث نفسه: «أنا لا أريد أن أصنع مثل الآخر». وأيضًا: «على أي حال، إنها زوجتي إلى الأبد الآن». وأخيرًا: «أنا من بومين». بعد ذلك، رفع الطفل على ذراعه وراح يغني له في وجهه، فابتسم السيد بانكراس، الذي استيقظ كليًا على وقع الخطوات القوية والطويلة، وهو ينتعش بالنسيم العليل والهواء النقي. كانت أنجيل تمشي بجانبهما بشجاعة وابتسامة، وتلون خداها بالحمرة من السرور والحيوية.

كان الطفل يتسلى بتفاصيل المشهد، وسرنا جميعًا معًا على نفس الخطوات، في روح واحدة وتفاؤل يجرفنا للأمام. كان صوت ضحك البجع يعلو ويتراقص مع الهواء، وردد بانكراس أصواتها على إيقاع جميل. لكن لا أنكر أنني كنت أفكر في البندقية. عندما وصلنا إلى لادولوار عند الساعة الحادية عشرة، واقترب الموقف أخيرًا، لم أعد أستطيع التحمل! كنت متوترًا وخائفًا. أما أنجيل، فكانت تمشي بثقة دون أدنى قلق. وراحت تدغدغ ألبين بقشة طويلة وترغمه على الضحك المستمر، لقد تعود بعضهما على بعض. لكن أنا، كنت وحدي، وشعرت بالخوف. إنهما ذاهبان نحو مصيرهما...

وصلنا إلى لادولوار، وكان المنظر مهيبًا. ها هي ذي هناك، أمامنا، والطريق المؤدي إليها كان ينطلق من قدمينا، بين شجرتي بلوط كبيرتين، ويمتد مباشرةً إلى الباب الأسود المفتوح الذي يشبه فاهًا مفغورًا. لو لم يغادر كلاريوس ليغرق بالفعل، فإنه كان هناك في ذلك الظل، وها نحن أولاء ذاهبون لملاقاته عبر هذا الطريق المستقيم والواضح. كان ألبين وأنجيل حقًا زوجين جميلين وجذابين. وجسدا مشهدًا أنيقًا كأنه

لوحة فنية. توقفنا تحت الشجرة على الجانب الأيمن من المزرعة، وحمل ألبين الطفل بحذر على ذراعه، ثم توسطنا وطلب من أنجيل أن تضع يدها حول كتفه، ووضع ذراعه حول كتفي. كانت هذه اللحظة ممتعةً ومليئةً بالسعادة، كنت أشعر بالطاقة والسرور. ثم قلنا: «هيا، لنذهب»، وبدأنا السير، كان ألبين يوجهنا بالأوامر ونغمات الهارمونيكا الموسيقية، والسيد بانكراس يردد معه الألحان سعيدًا. وفي ذلك الوقت، كنت أفكر في مكان كلاريوس وسلاحه، في الظلام الذي ينتظرنا هناك.

شعرت بغبائي وأنا أجرّ هذه الأرواح الثلاثة معي على هذا الطريق الملعون، كنا مثل البط على مرمى النار! ليتنا نستطيع الوصول إلى شجرة الصفصاف على الأقل! الصفصاف! واحد، اثنان، تجاوزناها! واحد، اثنان، نمضي قدمًا مثلما في الحرب! ليتنا نستطيع الوصول إلى شجرة الحور الأولى على الأقل! ها هي ذي! ثم الثانية، والثالثة! واحد، اثنان، ها نحن أولاء الآن نصل إلى أشجار الليمون! يا للصخب الذي نصنعه! نحن الثلاثة متحدون بأذرعنا مثل جدار من لحم، مثل أمواج عاتية. الحياة تغزو لادولوار مثل المياه الجارفة! لسنا نهاب العجوز الغبي الذي يختبئ مع بندقيته في الظل! دعه يطلق النار من النافذة! ها نحن أولاء أمام مدخل الفناء. يدور العالم كله تحت أقدامي بكل ما فيه من أشجار ومزارع وبنادق ونجوم. أسير لأنني متشبث بذراع ألبين. السيد بانكراس يردد: «آكر بيبي!». ثلاث خطوات، خطوتان، واحدة، وصلنا إلى الباب! ندخل: ها قد دخلنا! ها نحن أولاء! وفي صمت عظيم، أرانا نحن الثلاثة نقف في المطبخ. يحمل ألبين السيد بانكراس على ذراعه وهو يصدر أصواتًا غريبة. أما هما فجالسان بجوار النار الفارغة: السيدة فيلومين، عيناها وفمها مفتوحان من الدهشة، ووجهها مكتظ بالظل واللحم. أما كلاريوس فيتشبث بذراع كرسيه الخشبي، ويبدو مشدودًا مثل حيوان يتأهب للقفز. يستدير نحونا برأسه وهو يكشر عن أسنانه. صمت! نسمع أنفاسنا الثلاثة. السيد بانكراس يقول: «بيبي!». يعض كلاريوس العود الخشبي بين أسنانه. تركع السيدة فيلومين على ركبتيها وتجمع يديها وتقول: «أيتها العذراء الطاهرة، بحق الثمرة التي حملها بطنك، صلي من أجلنا!».

XIII

لم يطلق النار! أوه! كان يصوّب البندقية وأبقانا جميعًا، نحن الأربعة، في مرمى الفوهة السوداء، ثم أخرج العود الخشبي من بين أسنانه وصرخ قائلًا: «ساقطة!»، كانت أنجيل تقف بكرامة وثقة، ملتصقة بألبين، قميصها كان مفتوحًا ويبرز منه بعض من ثديها الجميل. لم يطلق النار. لم تكن فيلومين ولا العذراء الطاهرة هما من أوقفتاه. بل إنه لم يجرؤ على ذلك. كان ألبين رجلاً نقيًا مثل ندفة ثلج تطفو في هذا المنزل. هكذا كانت القصة.

تطايرت الأيام مثل أوراق التقويم...

أنا -كما ترون- وصلت إلى هذا المنزل في بادئ الأمر لأن مستواي قد انحدر. إن أساس عملنا نحن -الفلاحين المرتحلين- هو زراعة القمح، ولكن ذلك لم يعد متاحًا لي، فقد كبرت في السن. أصبحت أشتغل في جني الفاصولياء والعدس. حتى أنني قد اشتغلت في جمع البطيخ في أحد الأيام. بل إنني سأخبركم بأنني في الأسبوع الماضي فرزت حلوى التفاح لدى تاجر إسباني. هذه هي الحياة. علينا أن نأكل. وعندما تتاح لي الفرصة، مثل مساء اليوم، فإنني لا أفوتها دون أن أتذكر الأوقات الجميلة. آه، كم كانت جميلة زراعة القمح في ماريغرات، وكم كان ممتعًا حصادها برفقة العمال الذين يتسامرون ويستمتعون بالغبار الذي يتطاير في وجوههم وهم يعملون!

منذ تراجع قوتي الجسدية، أصبحت أتوجه بكثير من الحماس إلى المناطق القريبة من حقول القمح لأشاهد العمل من بعيد، فكأنني أجد نفسي أشارك جزءًا من العمل مع الآخرين، فتتبخر هموم السنوات. ولكنني عندما أجد فرصة عمل، فكثيرًا ما تكون في تنظيف الطرق الزراعية أو تصريف الجداول. آخر مرة زرت فيها هذه المنطقة، شعرت بالرغبة في رؤية لادولوار مرة أخرى. كان عليّ أن أتأكد من أن المنزل لا يزال ملكًا لكلاريوس. من بعيد، بدت الأراضي أكثر نظافة وتنظيمًا؛ وعندما اقتربت، رأيتها بوضوح وبدا لي كأنما مالكها رجل ذكي وذو ذوق رفيع. لقد قُطعت الأشجار الكثيفة في البستان القديم، تلك الأشجار المريضة التي لا تنتج الثمار، وأصبحت

هذه الأراضي مكانًا لزراعة الخضراوات الطازجة. جلست على ضفة الطريق، وضعت عصاي وحقيبتي بين قدمي، وهناك بقيت أتأمل كل هذا التغيير الذي حصل حتى ظهرت أمامي فتاة، طفلة صغيرة ذات طول قامة، أثارت فيّ شعورًا مميزًا كأنني استنشقت نسمة دافئة من الماضي، كما لو أنني فتحت باب فرن ساخن. كانت واثقة وذات بنية قوية. راحت ترعى قطيعها بجواري. قلت لها: «ألستِ من هذه المنطقة؟»، كانت في الخامسة من العمر تقريبًا. «لا»، أجابت بسرور، «أنا من بومين». أشعلت كلماتها نارًا بداخلي، لكن كان عليّ أن أتعامل معها بطابعٍ مرحٍ إذا أردت معرفة المزيد. قلت: «هل هذا المكان بعيد؟» فأجابت: «نعم، بعيد جدًا في الأعالي، أبعد من السحب». سألتها: «وهل جئتِ ترعين الأغنام من هذا المكان البعيد؟»، أجابت: «مستحيل! سيتحتم علي أن أسافر طويلًا وأقضي أيامًا في الطريق للوصول إلى هنا، ولن يُسمح لي بركوب القطار مع الأغنام، وكيف أعطيهم الماء في القطار؟ لا، أنا هنا، وأشارت بإصبعها الصغيرة نحو لادولوار، مع جدي. وأخي أيضًا، ها هو ذا هناك في الحقل، كما ترى يا سيدي، بجوار المحراث».

شاهدت الفتى الذي يتبع المحراث ويضرب الحصان بالسوط. سألتها عن اسمها وأجابت بسرور: «أنا أنجيل، مثل اسم أمي». ثم سألتها إن كان الرجل الذي يعمل هناك هو والدها، فأجابت برفض قاطع: «لا، والدي أكبر وأقوى، وعندما يحرث يتسارع العمل ويزدهر. إنه ليس موجودًا هنا، فهو في بلادي مع والدتي. سيعود قريبًا بعد نحو ثمانية أيام، ثم سنعود إلى بلادي، وعندما نصل إلى غاب، سيشتري لي مآزر جميلة، وسيشتري بنطلونات قماش لأخي، وثم سيشتري فستانًا لأمي، وعندما نصل إلى بلادي، ستقول أمي له: «أنت مجنون! وهو سيقبّلها»، ثم قلت لها: «أتحبين والدك كثيرًا؟» نظرت إلي لتتأكد من صدق سؤالي ثم أجابتني بعطف: «نعم، طبعًا». نهضت وحملت حقيبتي، ثم قلت لها: «اسمعي، أخبري والدك حينما يأتي أن أميدي يلقي عليه التحية، هل ستتذكرين هذا؟ أميدي؛ سيعرفني». ومضيت في طريقي.

ربما تساءلتم لماذا لم أعد صديقًا لألبين؟ ليس من الصعب أن أقترب من لادولوار وأحييه قائلًا: «مرحبًا، هذا أنا يا صديقي العزيز». كان ذلك سيبدو طبيعيًا بعد كل

ما مررنا به. بدلًا من ذلك، وجهت له تحية عابرة من خلال ابنته التي ستنسى أن تخبره في الغالب. نعم، أصبحت متأكدًا من أنها ستنسى تحيتي فور تجاوزي الطريق. والحقيقة أنني رغبت في أن تنسى. وبالنسبة إلى ما قلتموه عن تلاشي صداقتي مع ألبين، اسمعوا: لم أكن سأفعل ما فعلته مع أي شخص آخر. لا تظنوا أن أميدي يسدي معروفًا لكل من هب ودب. لا، يمكنني أن أخبركم الآن: إن هذا الصبي، ألبين، كان يمثل جزءًا مني في أعماقي. إنه ليس من الأشخاص الذين تلتقيهم كل يوم، كما تعلمون، إنه صبي نقي كالماء، وهذا النوع من الناس نادر في جيلنا وحتى في العالم عمومًا.

على الرغم من أنني أكبر من ألبين بنحو ثلاثين عامًا، وبالنظر إلى مرحلة عمري هذه، لا يعتبر من الغريب أن تمر الفكرة ببالي: «لو كنت أقل ميلًا نحو المغامرات، لربما كان لدي ولد مثل هذا الصبي الذي مر أمامي». دعنا نترك هذا جانبًا. لكن ألبين وأنا لم نعد أصدقاء! ليس أنه تخلى عليّ، على العكس، كان ودودًا جدًا بحيث اضطررت إلى تخليص نفسي من حبه تدريجيًا حتى أصبح مجرد ذكرى عابرة باسم: «رجل من بومين».

السعادة، كما تعلمون، هي أفضل وسيلة لإخضاع الأشخاص الجبارين، فهو كان يكافح في الحياة بقوة وصدق، مثل هرقل. ولكن، مع هبوب رياح السعادة، أصبح بلا حماية كأنه شجرة عاجزة. لم يعد يجرؤ على تحريك أي جزء من جسده، حتى عيناه لم تعودا تتحركان إلا قليلًا فقط... هل أتهمه بالجحود؟ بالطبع لا! لو قال لي أحدهم ذلك، فلن أتردد في ضربه! ليس جحودًا بل بيننا ود عميق وكبير جدًا! لو رأيتم عينيه فقط... عندما غادرنا لادولوار، غادرنا في جو من الفرح والفخر والرضا الذي يملأ الجميع. ودّعنا كلاريوس وهو يقول: «إلى اللقاء يا أولاد»، وكررت السيدة فيلومين قولها: «احرصي على إحكام جاكيت الطفل»، وظلوا ينظرون إلينا ويودعوننا حتى اختفينا بعيدًا وغبنا عن البصر، وحتى ساتورنين الأحمق راح يلوح بقبعته مثل صديق يعد بلقاء آخر في يوم لاحق.

لما غادرنا كان الجو باردًا وهبت الرياح الشمالية. عندما دخلنا أوريزون، اقترحت

عليهما شرب قهوة ساخنة، لكن ألبين رفض بتردد غريب. أدركت حينها أن شيئًا ما قد تغير. وبينما كانت أنجيل تهتم بالسيد بانكرايس في ركن من المقهى، جلس معي، وبحت له بكل ما في داخلي».

أها! بالنسبة إلى الأمور التي كانت ضربًا من ضروب الجنون، مثل أن أرافقه لطلب يد ابنة منزل لادولوار في كل تلك الأجواء المكهربة، كان ألبين يقول: «طبعًا!» ولكن، بالنسبة إلى الأمور المعقولة... مثل المال، فإنه لم يرغب في شيء من عندي، حتى لو كان جيبه فارغًا. كان يعتزم الصعود إلى الجبل سيرًا على الأقدام! كأنه لم يعد يثق بي! اضطررت إلى أن أصر عليه... وفي النهاية، استسلم لأجل أنجيل وطفلها.

وصلنا محطة القطار، ومع سكون الليل وصلت خطواتنا إلى نهايتها. انبسط الرصيف أمامنا، كانت القاطرات مفتوحة، وبدا القطار كأنه يتمدد على طوله مثل ثعبان طافح. كان موعد انطلاقه عند الساعة السابعة. اشتريت لهم التذاكر من مالي. ولم يتبق لدي سوى ثلاثة فرنكات، طلبت من ألبين بعض التبغ، ووضعت الفرنكات الثلاثة بداخل علبة التبغ دون أن يلاحظ، ليجدها عندما يريد أن يدخن سيجارته لاحقًا. ثم جلسنا في عربة القطار. كان واضحًا أننا لم نكن معتادين الجلوس في القطار، كان رحيل القطار سيكون مبكرًا على العرش الرمادي للصباح، وكنا وحدنا فيه. من الجانب الآخر على الرصيف، عبر الأبواب الزجاجية، كنا نرى أشخاصًا بقبعات سوداء يجلسون أمام المصابيح الزيتية. كان هناك عامل، رجل أحمر الوجه ينظف القاعة بتفانٍ. في لحظة ما، سار أحد الرجال ذوي القبعات السوداء على طول السكة وهو يحمل مصباحًا أحمر ويبحث عن شيء ما. بصرف النظر عن ذلك، كنا نحن والرياح فقط. بقيث واقفًا على الرصيف أمام عربة القطار. كان الباب مفتوحًا، ولكنني لم أكن جالسًا معهم. وضعت أنجيل رأسها على كتف ألبين وغطت في النوم. كانت محاطة به، ونام مونسيو بانكراس ملفوفًا في الجاكيت فوق ركبتي ألبين. فتح ألبين عينيه مرة أخيرة ولم يجرؤ على التحرك، لم يجرؤ على التنفس بقوة، أو حتى الحديث... كان دون طاقة، مقيدًا كليًا بحبل السعادة الذي يتركه بلا حماية كشجرة مكشوفة.

لو أنكم رأيتم عينيه! كنت أنظر إليه، وهو ينظر إليّ، وانتهى الأمر بلا كلمة واحدة. أخذت خطوة إلى الوراء، ثم خطوة أخرى. وفي لحظة ما، وجدت نفسي على الحافة لا أزال أستطيع رؤية عينيه. حينها، سمعتُ تلك العينين تقولان: «شكرًا يا صديقي، يا أكثر من صديقي؛ شكرًا يا جدّ السعادة. كل شيء سيكون بخير الآن، لقد انتهى الأمر، أليس كذلك؟ شكرًا، شكرًا جزيلًا!»، كنت أقف على حافة رابط الصداقة الذي ربط بين قلبينا، خطوة أخرى وكان سينكسر. أخذت تلك الخطوة الأخيرة للخلف، ومضيت. هكذا!

النهاية